التعليم العالى

● الحاجة إلى الرواية فى الإسلام :

لم تكن هناك خطط رسمية تحدد المناهج والوسائل ، وكان الطالب يحضر المواد التى تعجبه ، على الأستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه مفيدا ، ويتعمق فى درسه بقدر ما يسمح له ذكاؤه ، ويستقصى أطرافه بقدر ما تعينه إمكاناته والوسائل المتاحة له ، ومن السهل إذن أن تدرك الصعوبة التى تعرض لنا ، حين نحاول أن نحدد على نحو دقيق ، متى يبدأ التعليم العالى ، وأين ينتهى ، ومعها يمكن القول إن استخدام هذا المصطلح نسبى ، وفيه كثير من التجوز .

ولتحديد هذا المصطلح بدءا ، دون حاجة إلى ذلك فيما بعد، يمكن أن نقول إن التعليم العالى كل ما تجاوز المواد المقرر دراستها فى التعليم الابتدائى، وهى: مبادئ القراءة ، وحفظ القرآن ، وإنشاد الشعر ، وحفظه دون فهم فى أغلب الأحوال ، ومبادئ النحو .

وليس من الممكن كذلك تحديد أى المواد كان يبدأ طلاب التعليم دراستها ، لأن المواد ليست منفردة ، وقد يجمع الطالب أحيانا ، فى الوقت نفسه ، بين دراسات متنوعة ، بين أكثر من مادة ، كأن يدرس القرآن والحساب مثلا ، أو المنطق والطب ، ولكن طبقا للمنهج الذى حدثنا عنه **ابن العربى** ، وأشرنا إليه فيما سبق ، يمكن القول إن الدراسات الدينية كان لها السبق ، ولعل كثيرين من الطلاب كانوا يتوقفون عندها ، وقبلها أو معها تجىء دراسة النحو ، أعنى التعمق فيه ، لكى يستطيع الطالب أن يفهم الكتب التى حررت باللغة العربية فى المواد الأخرى .

وحين نعرض لهذه المواد ، فلن نبدأ بتلك التى كانوا يعطونها أهمية أكثر وهى دراسة القرآن وتفسيره ، ولا بتلك التى يبدأون بها عادة ، وهى النحو ، وإنما سنبدأ بالمادة التى تميز ، قبل غيرها ، منهج التربية الإسلامية ، وأعنى بها :

● السنة وطرق الرواية :

من البين أن الإسلام دينا لا يحدد رئيسا معينا مهمته تحديد العقيدة ، ولا طبقة متميزة من الفقهاء رسالتها تفسيرها ، والحفاظ عليها ، ولا يعترف بطبقة كهنوتية لها وحدها هذا

الحق ، وإنما وكل إلى عامة المسلمين أنفسهم رواية السنة ، جيلا ينقلها إلى جيل ، والقرآن نفسه كان يحفظ فى البدء بهذه الطريقة ، ثم تم جمعه فى مصحف مكتوب فى زمن الخليفة عثمان وبأمر منه ، ونسخت منه أربعة مصاحف أرسلت إلى أقطار الدولة الإسلامية المختلفة ، ليتخذ منها المسلمون أساسا يرجعون إليه ، ويراجعون عليه مخطوطاتهم الخاصة ، ومن غير المؤكد أن نجزم الآن بمكان هذه النسخ ، وبخاصة لأن الورع ارتفع بأعدادها إلى أرقام غير محددة ، ولا يمكن الوصول من بينها ، على نحو يقينى ، إلى النسخ الأصلية حقا[١] .

وليس النص المادى فحسب ، وإنما هناك الآيات المتشابهات ، وتقوم السنة على تفسيرها ، وتحديدها ، وكان ذلك بداية العلم فى الإسلام .

لم يكن المسلمون فى حاجة إلى من يهديهم إلى الوسيلة الأكثر مناسبة لدراسة السنة ، فقد استقر لديهم التقليد الأفضل لروايتها من سيرة النبى ﷺ ، فقد كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فهو يبلغ أوامره وتعاليمه شفاها ، فكان التعليم شفاها ، مباشرة من الأستاذ للتلميذ ، الوسيلة الأساسية ، وهو ما يسمى **السماع**[٢] .

[والأصل فيه ما روى عن الرسول ﷺ ، قال : « تسمعون ويسمع منكم ، ويسمع ممن يسمع منكم » ، وقوله « نضر الله أمرأ سمع مقالتى فحفظها ، ووعاها فأداها كما سمعها »] [٣] .

ويلى السماع رتبة أخرى فى الرواية ، عمادها أن يقرأ الطالب عن ظهر قلب ما يمكن أن يعرف بأية وسيلة أنه مذهب الأستاذ ، وهذا يستمع له ، ويقره على ما يسمع منه ، كما لو كان الدرس الذى ألقاه يعيده الطالب على سمعه ، وهو ما يسمى **العرض**[٤] . [والأصل فيه ، حديث ضمام بن ثعلب ، الثابت فى الصحيح ، أنه قال للنبى ﷺ : أمرك أن تصلى الصلوات الخمس ؟ . قال : نعم ... » . فهذه قراءة على النبى ﷺ . ثم أخبر بذلك ضمام قومه ، فأخذوا بما أدى إليهم من ذلك . واحتج مالك رحمه الله

---

(١) عرضت لتاريخ هذه المصاحف ، فى دراسة موجزة ، ألحقتها بكتاب « الفن العربى فى أسبانيا وصقلية » لفون شاك الألمانى ، وقد ترجمته إلى العربية ، ونشرته دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٥ . (المترجم)

(٢) ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ١٢ ، طبعة مدريد ١٨٩٣ .

(٣) الزيادة من المصدر السابق .

(٤) ابن خير فى مقدمة فهرسته أعطى الكلمة معنى أضيق من الذى أعطاه لها دوزى فى : رسالة إلى السيد فليشر : ملاحظات نقدية وتفسيرية لنص المقرى ، ص ١٥٩ وما بعدها .

obeikandi.com

بالصك يقرأ على القوم فيقولون : أشهدنا فلان . ويقرأ القارئ على القارئ فيقول أقرأني فلان . وقال يحيى بن عبد الله بن بكير : لما عرضنا الموطأ على مالك بن أنس ، رحمه الله ، قال له رجل من المغرب : يا أبا عبد الله ، أحدث به عنك ؟ قال : نعم . قال : وأقول : حدثنا مالك ؟ ، قال : نعم ، أما رأيتنى فرغت نفسى لكم ، وسمعت عرضكم ، وأقمت سقطه وزلله ، فمن حدثكم غيرى ؟ نعم ، حدثوا به عنى وقولوا : حدثنا به مالك . **وسماع العرض على الشيخ كالعرض سواء ، لا فرق بينهما فى المعنى]** [1] .

وأما التلاميذ الآخرون الذين يحضرون الدرس ، ويسمعون من فم زميلهم ما سوف يقره الأستاذ فيما بعد ، فيمكنهم أن يأخذوا بهذا السماع من شفاه زميلهم ، ويسمى « **سماع عرض** » .

وعندما انتهت رواية السنة ، فى إسناداتها المختلفة ، إلى أفراد بعينهم ، ومع شيوع استخدام الكتابة ، قاموا بنسخها وتصنيفها فى مجموعات كبيرة ، وتولد عن هذه طريقة فى الرواية موازية للطرق السابقة ، ولو أنها ليست من الطبقة نفسها ، وهى أن يقرأ الأستاذ من الكتاب ، وأن ينسخ الطلاب وراءه ما يسمعون منه ، وتسمى هذه : **قراءة** ، ويمكن أن يحدث العكس ، فيقرأ الطالب أمام الأستاذ وحده ، أو رفقة طلاب آخرين ، فى مثل الظروف التى أشرنا إليها .

وكان هذا ابتداعا ، ولو أنه غير محسوس ، غير الطريقة الأكثر صفاء ، والتقليدية حقا ، والتى سار عليها كثير من العلماء فى كل العصور ، وحتى يومنا هذا ، فهم يحفظون الكتاب عن ظهر قلب ، من أوله إلى آخره يلقونه على أسماع الطلاب ، بنقاطه وفواصله التى تميز بين جمله ، دون التفكير لحظة واحدة فى أن قراءة النص أشد بساطة ، وأدعى للثقة ، من هذا العمل المرعب ، والمؤدى إلى الخطأ .

وعندما يبدأ التجديد يصبح من السهل أن يترك الناس أنفسهم للموجة تحملهم ، ولن تعوزهم الأسباب أبدا لتبريره ، وقد قيل إن واجب كل مسلم فاهم أن ينشر التعليم الدينى على أوسع نطاق ممكن ، حتى لا ينقطع من يقوم على روايته لحظة ، فاذا حالت ظروف خاصة بين التلميذ وبين حضور دروس الأستاذ ، فهو يستطيع ، فرضا ، إذا أعطيناه الكتاب الذى يحتويها أن يعلم ما فيه وأن يرويه ، ويسمى هذا : **مناولة** ، سواء كان

---

(١) الزيادة من فهرسة ابن خير ، ص ١٣ .

الإعطاء مباشرة يدا بيد ، وهو الأشد تقديرا ، أو بواسطة شخص آخر ، وفى هذه الحالة من الأفضل أن يكون الكتاب منسوخا بخط الأستاذ نفسه ، أو راجعه وصححه على الأقل . وإذا ملك الابن كتبا بخط والده عد ذلك سماحا له بروايتها ، ويروى ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، فى ترجمة عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، من أهل قرطبة ، أنه « كان يحدث كثيرا عن كتاب أبيه ، فيقول : « وجدت فى سماع أبى بخطه » ، وقد جوز البخارى أن يحدث الرجل عن كتاب أبيه ، بتيقن أنه بخطه دون غيره[1] .

[والأصل فى **المناولة** حديث النبى ﷺ الصحيح ، حيث كتب لأمير السرية كتابا ، وقال له : لا تقرأ حتى تبلغ مكان كذا ، وكذا ، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس ، وأخبرهم بأمر النبى ﷺ ، فهذا النبى قد ناول أمير السرية كتابه ولم يقرأه عليه ، ولا عرضه أمير السرية عليه ، ثم ان أمير السرية قرأه على السرية فامتثلوا ما فى الكتاب وأخذوا به . وبلغ ذلك النبى ﷺ فرضيه ، وأقره عليه ، فقامت بذلك الحجة ، وهذا قوى فى المناولة جدا . ويدل عليه ما روى من « أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : ألا يمس القرآن إلا طاهر » ، فهذا الحديث أصل فى صحة الرواية على وجه المناولة ، لأن النبى عليه السلام دفعه إليه وأمره به ، فجاز لعمرو بن حزم العمل به ، والأخذ بما فيه] [2] .

وأخيرا أصبحت الآراء أكثر تساهلا ، وتنوسيت الاحتياطات القديمة ، وأصبح تسامح الأساتذة لعلاجها كلها مملا على نحو ما[3] .

كان هذا المنهج باختصار يتمثل ، فضلا عن الجوانب الشكلية التى أشرنا إليها ، فى رواية ما سمعه الراوى من الآخرين بنفس كلماتها ، لا ينحرف عنها شيئا ، ومع هذا العمل تصبح الموهبة أشد دربة ، والذاكرة أثمن شىء وأغلاه ، وموضع الإطراء من الجميع .

---

(١) الترجمة رقم ٥٤٨ فى الصلة ، طبعة ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٥٤٨ ، طبعة القاهرة .

(٣) سوف نعود إلى الموضوع نفسه لنكمل المادة عندما ندرس الإجازات ، فقد كانت هناك طبقة من السنة تسمى « الأحاديث السلسلات » وتتم دائما فى حفلات فخيمة ، ويجب أن تدرس فى يوم عيد الاضحى ، وأن يأكل الطلاب مع الأستاذ ، وأن يؤدوا بعض الصلوات . انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ١٧٥ طبعة مدريد .

• **الاعتماد على الذاكرة فقط وآثاره :**

وقد انحصر التعليم فى الأعوام الأولى ، فى إسبانيا كما فى بقية العالم الإسلامى ، فى دراسة السنة ، وفيما بعد ، وحتى الآن ، تعود الشبان أن يبدأوا دراساتهم بهذه المادة قبل أن يتجهوا إلى العلوم العقلية ، وأعطوا أمثالا ناطقة على ذواكر قوية للغاية ، تتجاوز حد الصدق ، لولا أنها تكررت ، وقامت عليها شواهد عديدة ، ولا يمكن تفسيرها إلا من خلال خاصية أسلوب التعليم فحسب .

[يروى **المراكشى** فى كتابه « **المعجب** » عن الوزير **أبى بكر** محمد بن الوزير أبى عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر قال :

« بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها ، فقلت له أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك به ، قال : ما أتيت به معى . فبينا أنه معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم وقعد ، وقال لى : يا بنى ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ، فقلت له : هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبا ، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ ، فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! ، فقلت : هو كتاب الأغانى ، فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ ، قلت : بلغ موضع كذا ، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به ، والضحك على قالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ ، قلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق فقال لم أجىء به معى ، فقال : يا بنى ، خذ كراريسك وعارض ، قلت : بماذا ؟ ، وأين الأصل ؟ ، قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ، قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يا بنى أمسك على ، قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فو الله إن أخطأ واوا ولا فاء ، قرأ هكذا نحوا من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس ، حافى القدمين ، لا يرفق على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوما ، حتى

ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاى اعذرنى ، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ، وجعل يسبنى ، والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفنى ، وأبى يقول : هبه ما عرفك ، فما عذره فى حسن الأدب .

« ثم أدخله الدار ، وأكرم مجلسه ، وخلا به فتحدثا طويلا ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأُسرجت ، وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبدا .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ، ويحك ! ، هذا أديب الأندلس وأمامها وسيدها فى علم الآداب ، **هذا أبومحمد عبد المجيد بن عبدون** ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره ، وجوده قريحته »] [1] .

من السهل أن نتصور إنسانا قادرا على أن يحفظ من الذاكرة ملحمة من ألف بيت ، أو من عشرين ألف بيت من الشعر ، لأن وقائعها وأحداثها ترتبط بعمل جوهرى ، تدور حوله ، وتكون وحدة يمكن إدراكها ، أما أن يحفظ إسبانى عن ظهر قلب كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، بكل رواياته وأشعاره ، وتبلغ نحوا من ٢,٥٠٠ صفحة[2] من القطع الكبير ، ودون أى صلة بين نصوصها المختلفة ، ومكتوب فى لغة عالية ، وغير دارجة ولا مألوفة ، فأمر يثير الإعجاب والغرابة ، لو لم نعرف أننا نلتقى عادة بأفراد كثيرين قادرين على قراءة القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، حفظا من الذاكرة ، دون أن يخطئوا فى حرف واحد فيه ، وهناك من يستطيع الشىء نفسه فيما يتصل بكتاب « المدونة » لسحنون ، أو « الموطأ » للإمام مالك ، أو **« صحيح البخارى »**[3] ، أو ديوان المتنبى ، أو كتاب الكامل للمبرد ، أو السنن لأبى داود ، أو الأمالى لأبى على القالى ، وغيرها . وهو أمر عادى ، إذا عرفنا أنه كان شيئا جاريا فى إسبانيا أن يحفظ كثيرون كتاب سيبويه فى النحو ، وهم لا يستطيعون أن يطبقوه حتى على نحو متوسط .

---

(١) أشار المؤلف إلى هذه القصة مجرد إشارة ، ثم علق عليها ، واستنتج منها ، وآثرت أن آتى بها كاملة ، لما فيها من دلالات اجتماعية قوية ، وما تومىء إليه من آداب رفيعة ، ليتنا نعود إليها . والقصة فى « المعجب » ، طبعة سعيد العريان الأولى ، ص ٨٨ وما بعدها . (المترجم)

(٢) كان هذا فى الطبعات القديمة ، أما طبعة دار الكتب المصرية ، وما بعدها فيتجاوز حجمه أضعاف هذه الصفحات (المترجم) .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ١٠٩٢ ، طبعة مدريد .

obeikandl.com

[يذكر المرّاكشى فى « المعجب » أنه لزم أبا جعفر الحميرى المؤدب نحوا من سنتين ، فما رأى أروى لشعر قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر ، أو بيت نادر ، أو سجعة مستحسنة منه ، رضى الله عنه ، وجازاه عنا خيرا . أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طول عمره ، وصدق محبته ، وإفراط شغفه بالعلم .

« قال لى ولده عصام ، وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب ، قرئت على أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت له : أين وجدته ؟ . قال : هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! ، وكنا فى المسجد فى زاوية ، فقلت له : أين هو ؟ فقال لى : عن يمينك ! ، فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يمينى إلا الأستاذ ! فقال لى : هو أصلى ، وبإملائه كتبت ، كان يملى على من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ، فالتفت إلينا ، وقال : فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبى قال : بعيدا أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبى ، والله لقد أدركت أقواما لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظا ولا مجتهدا »] [1] . ويلتقى الإنسان أحيانا بباعة عنب ، أو تين ، فى سوق قرطبة ، يستطيعون أن يسمعوا كتاب **معانى القرآن لأبى جعفر النحاس** ، من ذاكرتهم دون أن يكون الكتاب أمامهم[2] .

وهذه الطريقة تومىء إلى أن التربية كانت تستهدف تربية الذاكرة فحسب . وأى جهد ، وأى عرق كان يبذله أولئك الذين لا يستطيعون أن يبلغوا حظهم منها فى أكمل صورة ! ، وأولئك الذين يجدون أنفسهم محرومين من هذه القدرة موضع الزهو والفخر لعجز خاص بهم ، فهم يلجأون إلى الأطباء . وتعود هؤلاء أن يصفوا لهم ثمار شجرة هندية يتخذ منها شراب يعرف « بالبلاذر » ، يؤخذ بطريقة خاصة ،ويعتقد بعضهم أنه يؤدى إلى تقوية الذاكرة ، على حين يرى آخرون النقيض ، ويعتقدون أن الدراسة الجيدة الدءوب أفضل دواء لتقويتها[3] . ولكن كثيرين كانوا يستخدمونه ، ويذكر ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، عن ابراهيم بن محمد بن شنظير ، « كان يسمع كتب الزهد

(١) أوردها المؤلف موجزة ، استخلص منها النتائج واكتفى بها ، وأثبت النص كاملا . المعجب للمراكشى ، ص ٢٢١ طبعة أوربا ، ص ٣٠١ طبعة سعيد العريان الأولى (المترجم) .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة رقم ٦٧٠ ، طبعة القاهرة .

(٣) ابن الأبار ، التكملة ، الترجمة رقم ١٣٠٢ ، طبعة مدريد .

والكرامات ، وقد اختصر المدونة والمستخرجة ، وكان يحفظهما ظاهرا ، ويلقى المسائل من غير أن يمسك كتابا ، ولا يقدم مسألة ولا يؤخرها ، **وكان قد شرب البلاذر**[١] . وبعضهم انتفع به ، وأسرف فى استخدامه ، فأورثه حدة فى خلقة[٢] . وربما دفع الناس إلى استخدام هذه الثمار بدءا ما ترمز إليه شكلا ، فقد جاءت فى صورة قلب ، فظنها الناس مفيدة فى تقوية الذاكرة[٣] .

أثمر الميل إلى تقوية الذاكرة هذه الخضرة العريضة من الأدب التعليمى ، وازدهر فى المدارس العربية دون أن يصبح فنا جميلا ، وجاء متأخرا عن المنظومات التعليمية عند القدامى من يونان ورومان ، وكان هذا الأدب يتمثل عادة فى منظومات شعرية جافة ومعقدة ، وفضيلتها الأولى أنها تحتوى على الجانب الأكبر من المادة موضع الدرس ، بشكل دقيق ، عن طريق استخدام المصطلحات والتعريفات والإشارات التى تلمح من بعيد تقريبا إلى النقاط العلمية ،وهو ما يجعلها صعبة الفهم على المبتدئين ،وتتطلب شرحا أوسع من العمل نفسه مهما طال ، ويتضمن الشرح عادة كل ما يمكن أن يكتب عن المادة .

ما أقل العلوم التى أمكنها أن تنجو من هذا الغزو ! ، بدءا بالقراءات والفقه وحتى الطب والجبر[٤] . وفيما يرى ابن خلدون ، فإن الإسراف فى الاعتماد على الذاكرة كان إلى حد كبير ، وراء تدهور التقاليد العلمية الطبية فى الأيام الأخيرة لإسبانيا الإسلامية ، وفيما قبلها ، وبعدها فى المغرب العربى . وطبقا لهذا المؤرخ أيضا ، ليس من الغريب إذن أن نرى رجالا ينفقون أعواما وأعواما يحفظون عن ظهر قلب كثيرا من الكتب ، ولكنهم يعجزون عن شرح قضية علمية شرحا وافيا ، إذا عرضت لهم .

والحق أن المعرفة لا يمكن أن تزدهر على هذا النحو ،وأى بناء قديم يحتاج إلى ترميم ، فإذا ترك وحاله بدأ يتهاوى حجرا وراء آخر ، فلا يبقى منه أخيرا غير الأنقاض ، والأبنية الشامخة لعصور خلت حى شاهد على هذا .

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢٠٤ ، طبعة القاهرة ، وتكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة ٨٣٦ .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة رقم ٦٥٩ ، طبعة القاهرة .

(٣) الواقع أن هذا الشراب كان شائعا فى بغداد ، وللسبب نفسه ، وأراه هنا تقليدا للمشارقة فيما كانوا يفعلون . (المترجم) .

(٤) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٩١٥ ورقم ١٤٩٢ .

● اتساع دراسات السنة :

هذا اللون من التقديس الدينى الذى سلكه المسلمون فى طريقة رواية السنة ، ورأينا تأثيرها فيما مضى على ملكات الطلاب ، كانت تمثل المنهج الرئيسى ، وربما تغيرت الفكرة مع اتساع انتشار الإسلام ، وإخضاعه شعوبا غير عربية ،وتعلمه أشياء جديدة مما حققته وخلفته الحضارات القديمة ، ولكنه لم يتطور إلا بفعل التأثيرات المتبادلة ، فقد سمحت العلوم الشرعية بالقياس ، وعانت الفروع العلمية الأخرى ، فى مقابل ذلك ، من تأثير الطريقة التقليدية ، حتى تلك التى لاتربطها بها إلا صلة واهية ، وهو ما يفسر فى جانب منه قلة الأصالة فى بعض الإنجازات العربية ، وحبهم للشرح والجمع والتلخيص ، ونسخ النصوص القديمة كاملة ومباشرة فى أغلب الأحيان .

كانت السنة تروى فى البدء دون أن يمس كلماتها أى تغيير ، مهما كان تافها ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قالها ،أو عملها ، أو وضعها واستخدمها على نحو لا يجرؤ معه أحد على أن يغير منها كلمة ، خشية أن يمس ذلك معانيها ، ولكن فيما بعد أخذ التعليم يستهدف المعانى فحسب ، على نحو ما فعله **ابن القوطية** الشهير فى إسبانيا ، « ولم يكن بالضابط لرواية الحديث والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على جهة التصحيح »[1] . ولو أن كثيرين احتفظوا بطريقة إملاء النصوص ، ثم تفسيرها كلمة كلمة ، وتطبيقها على ما يعرض لهم فى مجالات الفقه والأخلاق ، وغيرها[2] .

وفى البدء عندما أخذ مذهب مالك يسلك طريقه إلى شبه الجزيرة، كان الأندلسيون يدرسون السنة كما عرفها ودونها أهل المدينة دون غيرهم تقريبا، ولو أن بقى بن مخلد حمل إلى الأندلس كتبا أخرى، لمذاهب مشرقية غير المذهب المالكى، كان الناس يتحمسون لدراستها فى غير الأندلس ، ولكن إسبانيا الإسلامية تميزت دائما بأنها موئل السنة ملاذها[3] .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ١٣١٨ ، طبعة مصر .

● وأنظر الدراسة القيمة التى قام بها المؤلف لكتاب ابن القوطية : « تاريخ افتتاح الأندلس » ،وقد ترجمناها كاملة فى كتابنا : دراسات أندلسية ،فى الأدب والتاريخ والفلسفة وصدر عن دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٧ . (المترجم)

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة ص ٢٥١ .

(٣) الضبى ، بغية الملمس ،الترجمة رقم ٥٨٤ ، وإشارات أخرى فيما سبق .

كان الإسبان المسلمون يدرسون عادة من كتب الحديث المجموعتين العظيمتين : **صحيحى البخارى ومسلم** ، فى أصلهما أو ملخصين ، وهى تلخيصات وشروح كان يقوم بها أساتذة من الإسبان أنفسهم .

وكانت هناك كتب **نقد الإسناد** ، وهى التى تعين الطالب على تقدير عدالة الراوى ، وصحة الرواية أو زيفها ، أو خطئها ، ويمكن معه أن يميز بين بقاء الحكم أو نسخه ، وتلك التى تتفق أو تختلف مع غيرها ، واشتهر منها بين الطلاب كتاب **الدارقطنى**[1]، والترمذى ، وغيرهما .

وكان كتاب **قاسم بن ثابت السرقسطى « غريب الحديث »** ، **وفيه** يفسر الكلمات الغريبة أو النادرة التى ترد فى الأحاديث النبوية من أفضل ما كتب فى هذه المادة ، وكان يدرس فى كثير من مدارس إسبانيا الإسلامية[2] .

وكعامل مساعد على هذه الدراسات كان يعنى بكتب التراجم والأنساب بخاصة ، لأن أى رواية تقوم على سلسلة متصلة من الرواد لا تنقطع ، منذ عهد الرسول عليه السلام حتى أيام الراوى أو الأستاذ .

وهذا ما يفسر لنا اعتناء العرب بكتب التراجم ، وشيوعها بينهم ، وانتشارها فى إسبانيا ، ويفسر لنا الوقت نفسه شيوع هذه الطريقة فى مجال التأريخ الأدبى والسياسى أحيانا .

- **القراءات** :

القرآن الذى أوحى به الله لرسوله عليه الصلاة والسلام مصدر كل معرفة عند المسلمين ، وأصل تصدر عنه كل المعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، وهو بينها أرفع العلوم قدرا ،إن لم يكن الوحيد الجدير بالتقدير الإنسانى ، لأنه يتضمن واجبات المخلوق إزاء خالقه ، وتمثل **الجانب الدينى** ، وتبيان الحلال والحرام وهو **أخلاقى** ، وتنظيم العلاقات بين الأفراد أنفسهم ، والذين يتكون منهم المجتمع وهو **سياسى** ومدنى .

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ١١١٤ .

(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٠٦٠ ، والضبى البغية ، الترجمة ١٣٠٠ .

وقد تفرعت عن دراسة القرآن عدة علوم ، الأول من بينها ، والأعظم تقديرا : قراءة القرآن وتجويده ، وهو يهدف إلى إحكام القراءة الصحيحة ، وضبط مخارج الحروف التى كتب فيها ، وما ينبغى لها من وقف ووصل ، ومد وغن ، وما إلى ذلك .. واستخدم المسلمون هذا العلم ، ويستخدم حتى اليوم ، لتثبيت قراءة النص القرآنى ، وتفسيره ، وفهمه على نحو مستقيم ، وفى الوقت نفسه وحّد الصلاة فى كل البلاد التى اتخذت الإسلام دينا .

ومنذ أن يبلغ التلميذ المدرسة الابتدائية يتلقى قواعده الأولية ، لكى يستطيع أن يبدأ فى قراءة القرآن وتجويده ، واختاروا القراءة الأكثر بساطة بين القراءات السبع الأصول ، والتى سادت منذ القرون الأولى ، على أن تترك التفاصيل والدقائق لكى يدرسها الطالب فى مرحلة التعليم العالى ، والتى تتطلب منه أن يعرفها كلها .

يقول ابن خلدون : « القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه ، المكتوب بين دفتى المصحف ، وهو متواتر بين الأمة ، إلا أن الصحابة رووه عن رسول الله ﷺ ، على طرق مختلفة فى بعض ألفاظه ، وكيفيات الحروف فى أدائها ، وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، فصارت هذه القراءات السبع أصولا للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، إلا أنها عند القراء لا تقوى قوتها فى النقل »[1] .

وكانت هذه المادة تشغل عادة بعض فترات الدراسة ، ودرسها ابن خير ، أبو بكر محمد ، أكثر من مرة على أساتذة مختلفين[2] ، وتعود التقاة الطيبون من المسلمين أن يتدربوا عليها يوميا ، فهم يقرأون القرآن أناء الليل وأطرافا من النهار ، ويرى بعض الأساتذة أن ذلك أفضل الطرق لتثبيته فى الذاكرة ، [ويروى **الصدفى فى معجمه** أن على بن عبدالله بن ثابت حدث عن أبى داود المؤيدى قال : — « قرأت عليه يوما حزبى من القرآن ، فتوقفت فى مواضع منه ، فلما أكملت قلت له معتذرا : لم أطالع هذا الحزب .فقال لى : يا بنى لعلك لا تقوم بالقرآن من الليل ، أنه لا يحفظه من لا يتنفل به

(١) أضفت هذ الفقرة من مقدمة ابن خلدون ، وعليها اعتمد المؤلف توضيحا للأمر ، ص ٤٣٧ ، طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .(المترجم) .

(٢) أنظر فهرسة ابن خير ، ص ٢٩ وما بعدها .

ليلا . قال فنفعنى الله تعالى بقوله][1] . وكان هناك من يسمع ثلث القرآن من ذاكرته ، دفعة واحدة ، فى الليلة الواحدة[2] ، وبعضهم نصفه وحتى القرآن كله أجمع[3] .

وقد أدت متطلبات العبادة أن يوجد ضرورة ، منذ البدء ، قراء يتلون القرآن فى المساجد ،جريا على تقليد أصيل نقله الأندلسيون عن المشرق ، وفيما بعد ، عندما شاعت فى المشرق وجوه القراءات المتعددة ، والقراءات السبع الأصول من بينها بخاصة ، ساروا هنا فى إسبانيا على النهج نفسه ، « إلى أن ملك بشرق الأندلس **مجاهد** من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاه المنصور بن أبى عامر ، واجتهد فى تعليمه وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته ، فكان سهمه فى هذا وافرا . واختص مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة ، لما كان هو من أئمتها ، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما ، وبالقراءات خصوصا »[4] ، وتوافد على بلاطه أشهر القراء ، وتكونت منهم فى إسبانيا مدرسة عظيمة ، ذات قواعد راسخة جليلة ، ونالت شهرة واسعة عريضة ، وامتدت تعاليمها إلى أطراف العالم الإسلامى كله فيما بعد .

كان **أبو عمر** الدانى شيخ هذه المدرسة ، بلغ الغاية فى علم القراءات ، وانتهت إلى روايته أسانيدها ، وتعددت تآليفه فيها ، وعول الناس عليها ، وأرسلت بما عداها إلى زوايا النسيان ، [واعتمدوا من بينها كتاب « التيسير » له] .

وقد نظم **ابن فيره** الشاطبى القواعد الواردة فى **كتاب التيسير** ، واختصرها فى منظومته التى سماها « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، واشتهرت باسم « **الشاطبية** » ، وجاءت بالغة الدقة ، وحين يحفظها الإنسان يعى فى ذاكرته كل المبادىء التى تضمنها الكتاب[5] . [وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا ، ولقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهى عمدة قراء هذا الزمان – زمان ابن خلكان – فى نقلهم ، فقل من يشتغل بالقراءات

---

(١) اكتفى المؤلف بإحالتنا على المصدر بعد أن وقع على فحواه ، وآثرت المجىء بالنص نفسه أنظر : معجم الصدفى ،الترجمة ٢٦٣ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة الترجمة رقم ٨٨٤ طبعة القاهرة .

(٣) ابن الفرضى ،جـ ٢ ص ١٠٦ ، طبعة مدريد .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٥) ابن خلدون ، جـ ٢ ، ص ٤٥٥ وما بعدها من الترجمة الفرنسية ، وص ٤٣٧ من طبعة التجارية ،النص العربى .

إلا ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهى مشتملة على رموز عجيبة ، وإشارات خفية لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها ، وقد روى عنه أنه كان يقول : « لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها ، لأنى نظمتها لله تعالى ، مخلصا فى ذلك »] [1] . وكانت هذه المنظومة تدرس فى إسبانيا وأفريقية ، ومازال الصبيان حتى يومنا هذا يحفظونها فى كثير من البلاد الإسلامية[2] ، ومازالت حتى يومنا أيضا تعاد طباعتها كثيرا .

وكان تدريس القراءات يهدف عمليا إلى أمرين : الأول كتابة القرآن فى ألواح مع علامات خاصة تشير إلى مواضع الوقف والوصل ، ما يجب منها وما يجوز أو يمنع ، إلى جانب الملاحظات الأخرى الخاصة بالتجويد[3] . والهدف الثانى القراءة نفسها ، ويبدأ المدرس عادة فى القراءة مقدما المثل ، ثم يحاول الطالب أن يقلده فيما فعل ، فإذا حقق الطالب شيئا من التدريب بدأ يرتل وحده ، والمدرس يتابعه ، ويصلح له الأخطاء التى يمكن أن يقع فيها .

وكان القراء المجيدون من أصحاب الأصوات الرخيمة التى تتميز بالحلاوة والطلاوة والدقة ، وتوحى بالورع والخشوع والتقوى ، مطلوبين كثيرا من عامة الناس ، لكى يقرأوا فى المساجد .

● التفسير :

ثمة نوعان من التفسير يتناولان أساسا نصوص القرآن الكريم : التفسير اللغوى ، والتفسير التشريعى . وفى الأول يدرسون الجمل والكلمات ، لفظا ، وكل ظروفها اللغوية والنحوية ، ومعانيها اللغوية ، والثانى يتصل بمعانى النصوص التى يشرحونها ، والمشابهات التى تثيرها ، ويذكرون آراء الأقدمين فيها ، من الصحابة والتابعين ، أو يعتمدون على السنة نفسها ، حديثا أو عملا ، وكل ذلك يجرى بمنطق يفترض أن الحق المطلق هو

---

(١) الزيادة من ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة محيى الدين ، الترجمة رقم ٥١٠ (المترجم) .

(٢) تكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٩٧٣ ، طبعة مدريد .

● وكانت هذه المنظومة تدرس أيضا فى الأزهر ، فلما انحدر أمره أصبح تدريسها شكليا ، على ما للعلم من جلال وخطر ، ولا أدرى مصيرها الآن ، ولم يبق من الأزهر إلا اسمه ، أما محتواه فخلق مشوه عجيب ، لا يمت بصلة إلى الماضى ، وليس فيه من الحاضر إلا الألقاب والرتب والمرتبات . (المترجم) .

(٣) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ٣٩٨ ، طبعة مدريد .

ما جاء به الرسول عليه السلام ،فما من أحد يفهم القرآن خير من المخلوق الذى كرمه الله ، فاختاره أهلا لوحيه ! .

والمنهج الأكثر ملاءمة لتفسير القرآن الكريم يتمثل فى بيان كيف فهمه أشد الناس قربا من مصدر الوحى ، وذلك خير من التعمق فى الأفكار التى يمكن أن يدفع إليها العقل ، وقد يكون خادعا ، مهما كان مستوى الذكاء الذى عليه صاحبه فطنة وحدة . وكل ما يتجاوز هذا المنهج زيادة فى العلم الإسلامى ، حتى الجدل فى عام الكلام بطريقة « المدرسيين » كان ينظر إليه فى بعض الحالات على أنه شىء يبلغ حافة الزندقة .

كانت إسبانيا الإسلامية تعتمد فى مجال التفسير على الكتب التى تصلها من المشرق ، أو على الطلاب الإسبان المسلمين الذين يذهبون إليه ، ليتعلموا كيف يدرسون التفسير إذا عادوا إلى وطنهم ، ولم تكن هناك مدرسة إسبانية متميزة حتى أيام **بقى بن مخلد** ، والذى ألف تفسيرا بلغ من كماله أن **ابن حزم** قال فيه :« فمن مصنفات أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد كتابه فى تفسير القرآن ، فهو الكتاب الذى أقطع قطعا ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »[1] .

وفيما يتصل بالتفسير الفقهى حرر **ابن عطية** ، أبو محمد عبد الحق بن غالب ، من أهل غرناطة ، تفسيرا اختصر فيه كل ما كتب قبله من التفاسير ، وراج رواجا عظيما فى إسبانيا والمغرب . وقد احتذى خطاه **القرطبى** ، أبو العباس أحمد بن مسعود ، وسار على نهجه ، وألف تفسيرا مازال يتمتع فى المشرق حتى يومنا هذه بشهرة عظيمة .

● **الفقه** :

كان إقبال الطلاب فى إسبانيا الإسلامية على دراسة هذا الفرع من المعرفة ، أكثر من إقبالهم على بقية المواد الأخرى بعامة ، لأنه يتيح لهم الفرصة لكى يتولوا الوظائف العامة ، دينية أو مدنية ، وكانت وظائف المشاورين والمساعدين ، والقضاة ، والكتاب ، وخطباء المساجد ، وغيرها ، وقفا عليهم كلها تقريبا ، وحتى أغلب الوظائف الأخرى غير العسكرية .ومن المعروف عنا نحن الإسبان غرامنا بتولى المناصب العامة فى الدولة ، وكان

(١) الضبى ، الترجمة رقم ٥٨٤ .

● أورد المؤلف معنى هذه الفقرة ، وأتيت بنصها كاملا ، وهى فى رسالة فضل الأندلس لابن حزم ، نفح الطيب للقرى ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ ، وما بعدها ، طبعة إحسان عباس . (المترجم) .

طلاب الفقه يملأون المساجد ، على أمل أن يحصلوا من مواطنيهم ، عقب إنهاء دراستهم ، على لقب « فقيه » ، وكان ساميا ورفيعا ، وموضع الإجلال ، حتى أنه كان يطلق على بعض الملوك تشريفا لهم .

دراسة الفقه إذن المادة الشائعة بين الطلاب ، طبقا لما يمكن أن نستنتجه ، ويدرسون معها عادة ، فى الوقت نفسه ، المواد الأدبية والعلوم الأخرى ، إذا لم يكتف الطالب بدراسة الفقه وحده .

وفى سنوات الفتح الأولى كان الذين يضطلعون بالفتوى أقل علما ، ولم تكن هناك قواعد ثابتة لإصدار الفتاوى فأخذوا أنفسهم بدراسة الحالات التى تعرض لهم بتعقل ، وعلى مهل ، وطبقا لاجتهاد المفتى الذى يعرض لها ، وهذا الاجتهاد يتم بداهة طبقا لقواعد الشريعة . ولم تكن هناك يومها دراسات فقهية منتظمة ، وعندما بدأ الإسبان يسيرون على المذهب الفقهى الذى اتخذه السوريون فى دمشق ، وهو مذهب **الإمام الاوزاعى** ، نما هنا فى إسبانيا اتجاه يأخذ منه هاديا ، وظل قائما حتى أيام هشام الأول (٧٨٨ – ٧٩٦م) ، حيث بدأ الإسبان العائدون من المشرق يدخلون ومعهم كتب عالم المدينة **الإمام مالك**[١] ، ولم يلبث هذا المذهب أن انتشر سريعا ، بل أصبح وحيدا ، عندما اتخذه أتباع المذهب الأوزاعى ، وساروا عليه ، وتم ذلك دون مقاومة تذكر فيما يبدو .

وسبق أن أشرنا إلى أن المحاولات التى بذلت لإدخال مذاهب أخرى فشلت كلها ، لأن الرأى العام كان معاديا لها ، وبالتالى لم تشغل مكانا مرموقا فى مجال دراسة الفقه فى إسبانيا الإسلامية . وعندما انتشرت مؤلفات الإمام مالك نفسها ، وبدأوا يدرسونها فى المقاطعات الإسلامية المختلفة ، تكونت حولها ثلاث مدارس ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا يسيرا : **مدرسة القيروان** ، ويمثلها أرفع علمائها **سحنون** ، **مؤلف المدونة** ، **ومدرسة قرطبة** ومنشئوها الكبار : **عبد** الملك بن حبيب ، ومطرف بن قيس ، وابن الماجشون ، وأصبغ بن خليل ، وقامت المدرسة الثالثة فى العراق ، ولم يهمل الإسبان دراسة كتب مدرسة القيروان ، ولكنهم لم يتقبلوا أبدا آراء المدرسة الثالثة ، لأن علماءها كانوا يستخدمون القياس[٢] . ويجب ألا نلجأ إليه ما دام فى الإمكان تطبيق السنة مباشرة .

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة ٧٧٤ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، جـ ٢ ص ١٧ ، الترجمة الفرنسية و ص ٤٤٦ ، طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة .

وكان **موطأ الامام مالك** الكتاب الرئيسى الذى يدرسه الأساتذة ، ويستخدم نصا فى المدارس طوال الحكم العربى ، ابتداء من جامع قرطبة علوا ، وانتهاء بأصغر مصلى تواضعا ،وكان محور دراسات واسعة قامت حوله ، تفسره أو تشرحه ،أو تعلق عليه ، أو تختصره ، أو توضح غريبه . وألفت معاجم خاصة بأسماء الرجال الذين وردوا فيه ، وحتى أسماء الملابس التى عرض لها ، وهو أمر لا يقود إلى شىء ، وبرهان على الورع الزائد المتطرف وحتى الوثنية التى يدفع اليها التقليد الرتيب .

وفى أواخر الحكم الأموى الإسبانى فحسب ، اتضحت بدقة معالم الآراء والتطبيقات الفقهية للمذهب المالكى فى إسبانيا ، وثبتت ، وهى آراء وتطبيقات لا تزال حتى يومنا هذا موضع الاحترام والاقتداء فى كل شمال أفريقيا :تونس والجزائر والمغرب .

● **تحرير الوثائق والشروط والفرائض :**

كان يمكن أن تدرس هذه المواد ضمن الفقرة السابقة التى أوقفناها على دراسة الفقه ، لأنها ليست إلا تطبيقا عمليا لمبادىء المذهب الفقهى على بعض الحالات العملية ، ولكن رأينا أن نخصها بدراسة مستقلة لأن العادة جرت أن يقوم على تطبيقها فقهاء متخصصون ، ولها موادها وقواعدها الخاصة بها .

ووظيفة الموثق ليست وقفا على الأشخاص الذين تسمح لهم السلطة العامة بمزاولة هذه المهنة ، ومن ثم يمكن أن يمارسها أى شخص موضع ثقة من مواطنيه ، وتنتهى حدود وظيفته عند تحرير الوثيقة التى يوقعها الأطراف المتعاقدون ،والذين يحتفظون بأصول الوثيقة ،دون أن تكون هناك مراسم محددة ، ولكن القاضى لا يقبل أى دعوى أمامه دون أن تتوفر فيها بعض الشروط الضرورية ، وبعض الشروط التى تتضمنها الوثيقة قد تكون غير ذات جدوى ، وفى الوقت نفسه قد تضم من العبارات ما يناقض رغبة المتعاقدين ، أو الأطراف المتنازعة ، ومن ثم أصبح من الشائع جدا ، حتى بين الأفراد المثقفين ، أن يلجأ الراغبون فى التعاقد إلى شخص متخصص ماهر ، لديه الخبرة الكافية ، لكى يحرر لهم وثائقهم وفق القواعد القانونية المطلوبة .

كان هؤلاء الموثقون يمارسون مهنتهم فى بيوتهم ،أو فى المساجد ، أو فى الشارع ، أو فى الأسواق ، أو فى حوانيتهم ، وعلى أبواب المدينة ، حيث يكثر عبور المارة ، ويستطيع الراغبون فى خبرته أن يصلوا إليه فى سهولة . وفى هذا المكان ، كما أتصورهم أنا ،

يجلس فوق سجادة ، أو حصيرة ، أو حتى على الأرض الجافة ، وأمامه الكتاب الذى يضم نماذج الوثائق المختلفة ،وإلى جانب منه مقلمته ، ومحبرته فى الجانب الآخر ، وفوق ركبته اليمنى كراسات من ورق ، أو كواغد ، يضغط عليها بيده .

وبلغت وظيفة **الموثق** فى بعض الأزمان ،ولبعض الأشخاص الأذكياء ، قدرا عاليا ، وحقق أصحابها شهرة واسعة ، وكونوا ثروات عريضة ، وقليلون فحسب يستطيعون أن يبلغوا ما حققوه[1] .

وكانت الكتب التى تدرس هذه المادة ، ويعتمد عليها الموظفون ، تتوزع فصولها بين قسمين : القسم الأول نظرى ، يضم المادة باختصار ويبين شروط العقد وأركانه ، وما يتطلبه وما يبطله . والقسم الثانى عملى ، يتمثل فى مجموعة من النماذج المختلفة ، لأنواع من العقود المتنوعة ، تغطى الحالات المتباينة التى يمكن أن تعرض لهم[2] . وثمة صلة تربط بين القسمين ، لأن الكتب النظرية تضم عادة نماذج لصيغ العقود أيضا ، طبقا للأسلوب الشرعى ، لكى يستخدمها أولئك الذين يقومون بالتوثيق تطوعا ، أو عند الاختلاف واللجوء إلى القضاء .

وأقدم ما لدينا من المؤلفات فى هذا الباب **ديوان ابن الهندى القرطبى** ، فى ثلاث طبعات ، فقد أدخل المؤلف على النسخة الأولى كثيرا من التعديل والتنقيح والزيادة ، « قال ابن عفيف : كان حافظا للفقه ، وحافظا لأخبار الأندلس ، بصيرا بعقد الوثائق ، وله فيها ديوان كبير ، نفع الله المسلمين به .قال ابن مفرج : قرأت على أبى عمر ديوانه فى الوثائق ثلاث مرات ، وأخذته عنه على نحو تأليفه له ، فإنه ألف أولا ديوانا مختصرا من ستة أجزاء ، فقرأتها عليه ، ثم ضاعفه وزاد فيه شروطا وفصولا وتنبيهات ، فقرأت ذلك عليه أيضا ، ثم ألفه ثالثة واحتفل فيه ، وشحنه بالخبر ، والحكم ، والأمثال ، والنوادر ، والشعر ، والفوائد ، والحجج ، فأتى الديوان كبيرا . واخترع فى علم الوثائق فنونا ، وألفاظا ،وفصولا وأصولا ، وعقدا عجيبة ، فكتبت ذلك كله ، وقرأته عليه »[3] . وفيما بعد اختصر **ابن ذنيل** ، أبو القاسم أحمد بن سعيد ، النسخة الكبرى من الديوان

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٢٤٥ .

(٢) فى الملاحق التى تلى هذه الدراسة توجد بعض النماذج لهذا اللون من الوثائق ، ومنها صورة عقد محرر بين تلميذ ومدرس أو بين مدرسين فحسب .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٢١ طبعة القاهرة .

لتسهيل دراسته ، وجاء مختصره هذا فى خمسة عشر جزءا[1] . ثم كثرت المؤلفات التى من هذا النوع حتى ليصعب علينا أن نعطى عنها فكرة ولو موجزة .

والقسم الخاص بمادة الميراث فى التشريع الإسلامى معقد وصعب ، لاختلاف الحصص التى يستحقها الوارثون فيما خلف المتوفى ، وتباين تطبيقها من ميت إلى آخر ، والتشابك بينها ،مما يفسح المجال عادة لعدم الاستقرار بين أفراد الأسرة الواحدة ، ومن ثم أصبحت هذه المادة مستقلة فى الدراسة ، وهى خليط من التشريع والحساب ، وفرع مستقل فى التطبيق الفقهى . ولأن تقسيم المواريث بين المستحقين لا يتوقف بداهة ، فقد وجد الفقهاء دائما مجالا واسعا ، وعملا كثيرا يمارسون فيه نشاطهم ، فازدهر هذا التخصص ، ونفقت دراسته على نحو ملحوظ .

ومن المؤلفات فى هذا الباب كتاب **ابن ثابت** ، ومختصر القاضى **أبى القاسم الحوفى** ، **ثم الجعدى** ، وكانت تدرس فى إسبانيا الإسلامية كلها . [ووصلتنا رسالة هامة عن « قسم المواريث بين المسلمين على مذهب مالك » ، كانت تستخدم بين الموريسكيين ، وكتبت فى اللغة العجمية aljamiada، ونشرت فى مدريد عام ١٩١٤] [2] .

• دراسات فقهية أخرى :

أدت دراسة القرآن والسنة إلى نشأة فروع أخرى أيضا ، وسيكون إسهابا منى أن أمضى فى دراستها مستقلة ، **مثل سياسة إدارة الدولة** ، ولدينا عنها أهم كتاب ألف فى الإسلام ، وهو كتاب **سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى** ، وعلم الكلام ، وهو ثمرة دراسة العقيدة بمنهج المدرسيين والفلسفة الإغريقية ، ولون من محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، وكان لهذا الاتجاه من يمثله فى إسبانيا ، علماء محترمون نعم ، ولكن دراساتهم لم يكتب لها الذيوع والانتشار على نحو واسع ، إما لأنها لا تتصل بحياة الناس

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة رقم ١٠١ .

(٢) الموريسكيون los Moriscos هم المسلمون الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس عام ١٤٩٢ ، وأكرهوا على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ، ثم طردوا من أسبانيا أخيرا ، وكانوا يكتبون الإسبانية بحروف عربية ، وعرفت لغتهم هذه باسم « الخميادو » ، تحريف لكلمة « العجمية » ، والزيادة من عندى لتوضيح مدى اهتمام المسلمين الإسبان بقوانين المواريث الإسلامية حتى آخر يوم من حياتهم على أرض شبه الجزيرة . (المترجم) .

العلمية ، أو للشبهات التى كانت تثيرها دائما فى أعماق الفقهاء ، حتى ولو اتسمت بالزهد ، كما هو الحال عند الغزالى .

وآثر آخرون حياة الزهد ، والمبادىء التى تدعو إلى الحياة التقية الخاشعة سلوكا ، والميل إلى حياة الخلوة ، وكان لها فى اسبانيا أتباع ومدارس ومنشآت ، **مثل خلوة الجبل لابن مسرة** ، **ورباط ابن مجاهد الإلبيرى** ، **ومدرسة أبن أبى زمنين** ، وهو من مدينة إلبيرة أيضا ، وغيرهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا حد تكوين حلقات فى المساجد يتولون التدريس فيها ، إلا على نحو عابر وخاطف دائما .وكما كانت حياة هؤلاء الأشخاص ، فرسان العلم والدين المتجولون ، كذلك بدأ ظهورهم سريعا دعاة متحمسين ، يفيض داخلهم غيرة وحمية ، مثل هرطقة منحرفة ، منفصلة كلية عن المذهب الرسمى .

ونعرف من هؤلاء الزهاد الششترى الوادى آشى ، واشتهر فى المشرق بمؤلفاته ، وليس أقل شهرة منه ولا خصوبة محيى الدين بن عربى ، ومن مرسية ، وهى مدينة شهدت فى آخر أيامها الإسلامية ، على ما يبدو ، تأصل مذهب وحدة الوجود ، وامتدت فيها جذوره إلى غور عميق .

وارتبطت بالقرآن أيضا ، وعنه صدرت ، علوم أخرى ، قد لا تبدو فى زماننا مقبولة ، مثل دراسة الفضائل السحرية لبعض الآيات القرآنية ، وعلم تفسير الأحلام ، وما إلى ذلك ، ولكنها فى العصر الذى ندرسه كانت مهمة ، وتدرس فى جدية واقتناع .

● **اللغة العربية ، النحو والمعاجم :**

لم تكن دراسة اللغة العربية فى الأيام الأولى للإسلام الإسبانى ذات منهج ، حتى ولا فى المشرق ، لأن مدرستى الكوفة والبصرة لم تكونا قد انتهتا بعد إلى وضع كتب فى قواعد النحو نفسها ، وكان من الضرورى فى إسبانيا ، كما فى بقية العالم الإسلامى ، أن يتعلم الطلاب القواعد من النصوص نفسها ، دون استخدام كتب خاصة بالنحو ، ثم عرفوا بعد ذلك كتبه ، وكان أول ما ذاع بينهم منها كتاب **الكسائى** ، وكتاب **سيبويه** ، وكتبا أخرى . ثم ظهر بين الإسبان أنفسهم من ألف فى هذا الباب رسائل أو كتبا ، وواءموا بين تعليمه وبين الظروف الخاصة القائمة فى إسبانيا .

وقد ألف **جودى بن عثمان المورورى** كتاب **منبه الحجارة فى النحو** ، [وكان أول من أدخل كتاب الكسائى إلى إسبانيا ، وألف أبو على القالى رسالة عن **المقصور والممدود** ،

وأخرى عن الأفعال عنوانها : **فعلت وأفعلت** ، **والبارع في اللغة** ، وهو موسوعة لغوية رتب فصولها على أحرف الهجاء ، وكان يقع فى خمسة آلاف صفحة] . ووضع ابن القوطية كتاب « الأفعال فى اللغة » ، وحرره نقاطا تولى تلاميذه فيما بعد تنقيحها وإكمالها ، وذاع واشتهر بين الدارسين[١] . واتجه **الزبيدى** ، إلى جانب دراساته النحوية ، إلى الكتب الأدبية ، يحاول تنقيتها مما تطرق إليها من « لحن العامة » ، ويرشد الأندلسيين إلى ما ينبغى لهم من العربى الصحيح . وقام باختصار **كتاب العين للخليل** بن أحمد ، واحتل المختصر مكانة مرموقة وخالدة بين علماء وطلاب شبه الجزيرة ، ولهذا السبب ، دون غيره بلا شك ، لا نجد أية مخطوطة له ، فى أى مكان ، إلا فى المكتبات الإسبانية ، حيث تحتفظ منه حتى يومنا هذا بخمس نسخ أو ست ، واثنتان منهما ، توجدان فى المجموعة التى كان يملكها بابلو خيل Pablo Gil، وانتقلت ملكيتها إلى جمعية تشجيع الدراسات ، وأحداهما أقدم النسخ كلها[٢] .

ولكن مسلمى إسبانيا لم يقفوا عند هذا الحد ، ولم يرضوا بالرسائل الموجزة الضرورية ، وإنما أعطوا دراسة النحو اهتماما أكبر ، وكان احترام العالم يتوقف على مدى ما يعرف منه ، ويحفظ من أدق خصائصه ، وأصغر تفاصيله ، وبقدر ما له منها يلقى من الاعتبار ، ومن يريد ألا يعد متأخرا ، أو بليدا ، عليه أن يتصدى للكتب الكبرى التى ألفها المشارقة فيه ، وبخاصة كتاب سيبويه ، وكان موضع العناية أكثر من غيره . والحق أن إسبانيا كانت مهيأة تماما لأن تتم فيها هذه الدراسات على نحو أفضل مما يجرى فى أية مقاطعة إسلامية أخرى ، لأن الصبيان يتلقون مبادئ النحو فى المدرسة الابتدائية ، إلى جانب قصائد من الشعر ، ونصوص أدبية أخرى ، تؤهلهم جيدا للدراسات العالية ، لأنهم يتمكنون فى سن مبكرة جدا من القدرة اللغوية عمليا ، دون أن يحدث لهم ما كان يجرى فى المغرب وتونس ، وحتى أيامنا هذه ، حيث يدرسون القواعد بطريقة نظرية خالصة[٣] .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٧٥٩ ، طبعة مدريد .

● ما بين الخاصرتين لتوضيح تطور التأليف فى النحو . هذا وقد نشر المستشرق الإيطالى جويدى كتاب الأفعال لابن القوطية عام ١٨٩٤ ، ونشره فى الخمسينيات فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور فؤاد حسنين على . (المترجم)

(٢) شهدت بعينى نسخة المخطوطة الموجودة فى المكتبة الوطنية فى مدريد سليمة ، وكتبت فى خط جميل للغاية ، وحسنة التجليد والتذهيب ، وعورضت على النسخة التى كتبها الزبيدى بخطه للحكم المستنصر . (المترجم) .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ٣ ص ٣٤٨ ، وطبعة المكتبة التجارية ، ص٥٣٨ .

وكانت النتيجة أن إسبانيا الإسلامية عرفت دائما مؤلفين يكتبون فى بلاغة عالية، كما هو عليه الحال فى أى بلد إسلامى آخر، ووجد بها فى كل عصر أساتذة تميزوا بقدرتهم الرائعة على أن يستخدموا اللغة بمهارة، وفى أكمل صورها، من **ابن حيان** إلى **ابن الخطيب**.

وحتى فى الأيام الأخيرة للإسلام الإسبانى، حين بدأت بعض الدراسات تتدهور، حافظ علماء النحو على نقاء اللغة فى أدق حالاتها، وبجهد كبير. « قال ابن مسدى: أملى علينا ابن المناصف النحوى بدانية على قول سيبويه: « هذا باب ما الكلم من العربية » عشرين كراسا، بسط القول فيها فى مائة وثلاثين وجها »[1].

ويكفى أن نذكر علماء مدرسة إشبيلية، عندما خرجوا منها إثر وقوعها فى يد النصارى، وحملوا معهم إلى المغرب تقاليدهم المتوهجة، أو أن نشير إلى **أبى حيان**، وكان يلقب « بشيخ النحاة [لعلمه الغزير فى هذا الباب، وكان إلى جانب ذلك واسع المعرفة بفروع أخرى من العلوم الإسلامية، كالتفسير، والحديث، والشروط والفروع، وتراجم الناس وطبقاتهم »، وغير ذلك. وقد بارح أبو حيان الأندلس فى سنة ٦٧٨هـ — ١٢٨٠م، وطاف بنواحى المغرب ومصر، ووصل إلى الحبشة، ثم حج إلى بيت الله الحرام، وتوجه بعد ذلك إلى الشام، وانتهى به المطاف آخر الأمر فى القاهرة ».

« وقد أتقن اللغات الفارسية والتركية والحبشية، وأبدى فى القاهرة نشاطا عظيما، وخلف شيخه محمد بن النحاس فى أستاذية النحو، وكان شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية فى القاهرة، وكان يقرأ القرآن فى المسجد، وكان متين الخلق، حسن العشرة، ذكيا صاحب أفكار مبتكرة، وفكاهة مستحبة »، « ولم يبق لنا من كتب ابن حيان إلا كتابان، على الرغم من أن الذين ترجموا له يقولون إنه وضع خمسين مؤلفا، الأول فى التفسير، وهو مخطوط بمكتبة ليدن، والثانى فى النحو، عنوانه: **فضل النحو**، وهو مخطوط فى مكتبة برلين، وقد ألف أبو حيان كذلك فى نحو الفارسية والتركية »].

وحتى اليوم فإن كتب ابن **مالك الجيانى** تتخذ نصا للدرس فى أربعة أخماس العالم على الأقل، حيث تدرس اللغة العربية، وتتوالى طبعاتها دون توقف، وتلتقى بها — مثلا — فى أقصى ركن من الهند المسلمة. [ومن بين مؤلفاته الكبيرة **الكافية الشافية**، وهى

(١) المقرى، نفح الطيب، جـ٤ ص١٤١، طبعة احسان عباس.

كتاب منظوم فى النحو ، يقع فى ثلاثة ألف بيت من بحر الرجز ، **والألفية** ، وهى مختصر الكافية ، وتقع فى ألف بيت ، وقد نشرها دى ساسى de Sacy مع شرح وتعليق فرنسيين فى عام ١٨٨٣م ، ونقلها إلى الفرنسية بعد ذلك بنتو Pinto عام ١٨٨٧ ، وجوجويه Gogyer سنة ١٨٨٨ ، ووضع علماء المسلمين فيما بعد شروحا كثيرة عليها ، وبها قدّم **ابن مالك** خدمة جليلة لدارسى النحو العربى ، على الرغم من قدح خصومه فى عمله ، فقد نسق قواعده ، وبسط معلوماته ، وإن كان يؤخذ عليه الغموض ، وعدم الوضوح ، فى بعض المواضع ، مما لا ينبغى أن يقع فى مؤلف تعليمى .

وفيما يتصل بمادة **المعاجم** يكفى أن نذكر مؤلفات **ابن السيد البطليوسى** العالم اللغوى ، « ومن بينها كتابه **المثلث فى اللغة** » .

وقدمه **ابن خلكان** فى **وفيات الأعيان** على أنه « فى مجلدين أتى فيه بالعجائب ، ودل على اطلاع عظيم »[1] . أو **كتاب العالم** الذى ألفه محمد بن أبان بن سيد **اللخمى** ، وقال **ابن حزم** فى شأنه إنه « نحو مائة سفر على الأجناس ، فى غاية الإستيعاب ، بدأ بالفلك ، وختم بالذرة » ، ويقول **ابن حزم** أيضا : إن أحسن تأليف وضع فى علوم اللغة ، وأوفرها مادة ، وأصحها نصوصا ، هو كتاب معاصره **ابن التيانى** ، أبو غالب تمام بن غالب ، وكان أديبا ذا أنفة واعتزاز بما أدرك من شهرة ، حتى لقد أنف أن يزيد فى مقدمة كتابه المذكور عبارة : « مما ألفه تمام بن غالب لأبى الجيش مجاهد » صاحب دانية ، وكان هذا الأخير قد وجه إليه ألف دينار أندلسية « فرد الدنانير ، وأبى من ذلك ، ولم يفتح فى ذلك بابا البتة ، وقال : والله لو بذل لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، لأنى لم أجمعه له ، بل لكل طالب » .

« وقد ألف أبو عبد الله محمد بن إبراهيم **الحجارى** ، المتوفى سنة ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م ، كتابا عن المعاجم ، تحدث فيه عنها بإسهاب . ويكاد **ابن سيدة** ، أبو الحسن على بن إسماعيل ، المتوفى ٤٥٨هـ - ١٠٦٦م ، أن يكون أكبر أصحاب المعاجم الأندلسيين ، وكان رجلا بصيرا من أهل مرسية ، وقد درس على أبيه ، وكان بصيرا كذلك ، وعلى صاعد البغدادى ، وأبى عمر الطلمنكى ، ثم دخل فى خدمة مجاهد صاحب دانية ، وقد وضع مؤلفات كثيرة ، بقى لنا منها شرح ديوان المتنبى ، ومعجمان : الأول هو

---

(١) هذه الفقرة زيادة منى للايضاح . (المترجم)

« المخصص فى اللغة » ، وقد رتب ألفاظه بحسب الموضوعات المتقاربة ، والثانى هو المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة .] وهو معجم أبجدى يبدأ بالعين ، وقد سار فى وضعه على نهج يقارب نهج الخليل فى معجمه][1] .

ما أكثر ما يجب على مستشرقينا أن يقوموا به الآن فى هذا المجال ، لكى يبلغوا فى هذه المادة ما حققه أسلافهم ، حتى يحق لهم أن يصبحوا خلفاء جديرين بالانتساب إلى أولئك الأعلام الذين عرفوا كيف يجعلون الأدب الإسبانى العربى يحتل مكانا رفيعا .

● **الأدب :**

كان الإسبان المسلمون يفهمون تحت هذا المصطلح : التاريخ ، والشعر ، والنثر الفنى ، والقصص ، وهذه المعارف بلغت القمة فى إسبانيا تميزا ونضجا ، ومن لا يجيدونها يبذلون جهدا طائلا ، وضائعا ، فى أن يأخذوا بحظ منها ، لكى يحتلوا مكانا عاليا يتجاوز حدود وطنهم ، وليشقوا لأنفسهم طريقا يحصلون فى نهايته على تقدير المجتمع ، وأن يعاملهم بوصفهم أشخاصا ممتازين ، لأن « العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع حاجة ، وما أشبه ذلك » . أما الذين يفشلون فيجدون أنفسهم فى نهاية المطاف ولا أحد يهتم بهم ، ولا يرونهم إلا أناسا مزعجين ومملين .

والشعر عندهم موضع التقدير السامى من أى عصر ، جاهلى أو إسلامى ، وفى أى غرض قيل ، حماسة أو مديحا ، هجاء أو رثاء ، خمريات أو غزلا ، وفى أى شكل كانت القصيدة ، تقليدية موحدة البحر والقافية ، أو متنوعة ، فى الفصحى أو جاءت عامية خالصة ، كما هو الحال فى الزجل ، وهو ابتداع إسبانى سرعان ما بلغ مرتبة عالية من الإقبال والتقدير . وكان السجع يستخدم فى الرسائل الرفيعة ، وأحيانا فى العادى منها ، وفى الخطب الجامعة ، والدينية ، أو فى حفلات البلاط ، وفى الكتب الأدبية والتاريخية ، وهو صعب الكتابة ، ويحتاج إلى مراس ، ويتطلب معرفة واسعة عميقة باللغة ، ويشهد لكاتبه بالذكاء والثقافة ، ويدرسه الطلاب فى المدارس .

---

(١) كل ما بين خاصرتين زيادة منى لتفصيل ما جاء به المؤلف فى إجمال شديد ، وهو مقتبس من كتاب تلميذه انخل جونثالث بالنثيا عن الأدب الأندلسى . (المترجم)

وكان التاريخ ثمرة ناضجة فى بستان الثقافة الإسلامية ، وموضع الدرس والإقبال من الطلاب ، فى مختلف جوانبه ، بدءا بأيام العرب القديمة ، وظلت تروى شفاها بالطريقة التقليدية ، أو المدونات التى تسجل الأحداث شهرا فشهرا ، وعاما فعاما ، وتترجم للأعلام فى السياسة والدين والأدب ، أو تختص بتدوين الأحداث التى وقعت فى بلد ما ، أو لشعب ما ، أو لجنس ما ، وانتهاء بتلك التى تبلغ قمة الرقى ، فتهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية ، وتدخل فى دائرة ما يمكن أن **نسميه علم الاجتماع أو فلسفة التاريخ ، وأعنى بذلك ابن خلدون** بخاصة ، ومع أنه ولد خارج إسبانيا ، ولكنه إسبانى الأصل ، وتتلمذ على أساتذة ولدوا وتعلموا فى إسبانيا ، وعاش فى بلد كان يحس يومها بتأثير الحضارة الإسبانية ، فى مختلف جوانب حياته ، قويا وعميقا ، أى أن أروع ما أبدع الإسلام فى مجال التاريخ ، يمكن - وبحق ! - أن ننسبه إلى بلدنا .

من المستحيل أن نقدم فى مساحة محدودة موجزا عن طرائق التعليم فى هذا الجانب ، لأن ذلك يتطلب أن نلقى بأنفسنا كلية فى خضم التاريخ الأدبى الزاخر ، وظل فى بعض جوانبه ، حتى يومنا ، معتما ومجهولا ، ولما تكتشف كل ذخائره .

كان الشاعر يتمتع بالاحترام الاجتماعى ، ويرى نفسه أهلا للتقدير المادى كذلك ، ويقبض فى سخاء إذا استطاع أن يتميز فى البلاط ، أو فى مجتمع الخاصة ، وحتى بين عامة الشعب أنفسهم ، ولم يكن الشعراء الوطنيون وحدهم مناط التقدير والتكريم ، وتنفق أشعارهم فى سوق شبه الجزيرة ، وإنما شمل الشعراء الغرباء أيضا ، فى أحايين كثيرة ، يتزاحمون على إسبانيا فى جلبة ، تشدهم إليها روائح العطايا والصلات .

وفى الوقت نفسه ، كان التخصص فى دراسة الأدب يقود إلى مناصب الكتاب اللامعة فى البلاط ، وإلى الوزارة ، والولاية ، والقضاء ، ويحرص كبار رجال الدولة ، عادة ، على أن تحرر الوثائق التى تصدر عنهم فى لغة فصيحة عالية ، إن لم تكن سجعا أنيقا ، رقيق الحواشى ، موسيقى الإبداع ، وهذا السجع داء اللغات الوبيل ، ولا يمكن التحرر منه أبدا .

وكان إعداد الطالب فى الأدب على نحو جيد يتطلب منه أن يدرس المؤلفات المشرقية ، من دواوين شعراء الجاهلية وأمهات الكتب الأدبية ، مثل : كتاب الكامل للمبرد ، ومؤلفات أبى على القالى ، وكتابه النوادر بخاصة ، وديوان المتنبى ، وتاريخ ابن أبى خيثمة ، وغيرهم .

أما المؤلفات الإسبانية فى المجال نفسه فتتراوح بين دراسة **الأساطير التاريخية القديمة ، التى نظمت فى بحر الرجز ، عن سارة القوطية بدءا ، وتنتهى بالمقامات الصعبة التى كتبها أبو طاهر محمد** بن يوسف السرقسطى الإشترقونى ، نسبة إلى إشترقونة Estercuna ولا تزال مخطوطة فى مكتبة برلين(١) . ومرورا بالمؤلفات التى حررها أصحابها تقليدا للمشارقة ، وفى مقدمتها كتاب **العقد الفريد لابن عبد** ربه ، وهبوطا حتى الزجل ، وهو أدناها مقاما ، وأشدها ابتذالا ، ولكنه تمتع فى إسبانيا بشعبية عريضة ، وكل لون من هذه الدراسات كان له أساتذته وتلاميذه .

وحتى قصائد الحب والخمر المسرفة ، والتى تمنعها الأخلاق الدينية دائما ، لأنها خارجة أكثر مما يجب ، كان لها على الدوام عشاقها بين أهل الأندلس المرحين ، ومثلها الأغانى الشعبية أيضا ، وتضم كلمات مبتذلة وقبيحة ، ولكنها محببة إلى العامة ، ويدفعون فى دراستها ، وأحيانا كان المسئولون أنفسهم يشجعون على تعليمها ، يروى **ابن القوطية فى كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس »** ، وهو يعرض لأخبار **أمية** بن عيسى ، وكان وزيرا للأمير **محمد الأول** (٨٥٢ - ٨٨٦م) : « أنه خطر بدار الرهائن ، المجاورة لباب القنطرة (بقرطبة) ورهائن بنى قسى ينشدون شعر **عنترة** ، فقال لبعض الأعوان إيتنى بالمؤدب ، فلما نزل فى فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، قال لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعمد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم ، فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ، كف عن هذا ، ولا ترويهم إلا خمريات **الحسن** بن هانىء ، وشبهها من الأهزال »(٢) .

وكان الإملاء الأسلوب المتبع عادة فى تعليم هذه المواد(٣) ، وإنشاء قصائد الشعر التى يمكن أن تفهم عادة دون حاجة إلى شروح واسعة ، وأما الشعر الجاهلى فكانت هناك حاجة ماسة دواما إلى هذه الشروح ، حتى بين أصحاب الثقافة الواسعة ، فى كل العصور وعند كل الشعوب الإسلامية ، وكان على الإسبان المسلمين أن يأخذوا بالمنهج الذى أدخله **صاعد البغدادى** ، وهو شاعر مشرقى ، وفد إلى إسبانيا فى عصر **المنصور** بن أبى عامر ،

---

(١) وله مخطوطة أخرى فى مكتبة لاله لى ، ولها مصور بمعهد المخطوطات العربية ، ميكروفلم ، رقم ٧١٤ . (المترجم)

(٢) ص ١٠٧ طبعة مدريد .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ص٢٥٧ وما بعدها ، طبعة أوربا ، وانظر أيضا الوثائق الملحقة بهذا البحث .

وأصبح شاعر بلاطه ، وعماد منهجه أن يقرأ التلميذ الشعر ، ويسأله الأستاذ عن معانى الكلمات ، ويشرحها التلميذ ، بعد أن يكون قد عاد إليها فى كتب المعاجم ، وأعد بها قائمة[1] .

● **الطب :**

يعترف العرب أنفسهم بأن معرفتهم بلغتهم وأدبها ، وبالعلوم الشرعية نفسها ، ارتبطت كلها بدءا بالقرآن والسنة . أما بقية العلوم الأخرى فقد تعلموها من الشعوب التى افتتحوها ، أو كانوا على صلة بها ، وأنهم تمكنوا من العلوم القديمة التى تخلفت عن الحضارات التى سلفت . والطب ليس أعلاها فى مجال الفكر والتأمل ، ولكنه أكثرها أهمية فى مجال العمل والتطبيق ، وعن تعليمه سوف أتحدث :

إن المعارف المنهجية الأولى لهذا العلم ، والتى تتجاوز التجارب الأساسية التى يعرفها أى شعب حتى فى أشد الظروف تخلفا وهمجية ، استمدها العرب من الفرس . وكان الأطباء الذين يخدمون الأمراء الأمويين أنفسهم فى المشرق من المسيحيين ، ويستخدمون فى تدريس المادة الترجمات من الفارسية ، أو اليونانية ، أو الهندية ، وغيرها من اللغات .

وعرفت إسبانيا الإسلامية أطباء مسلمين ، ومن المسيحيين واليهود ، حقق بعضهم شهرة عريضة ، وأولئك وهؤلاء اعتمدوا فى الجانب الأكبر من دراساتهم الأولية على المبادئ التى انتهى إليها أندادهم فى المشرق ، وجئ بها إلى شبه الجزيرة ، بواسطة الأطباء المشارقة الذين وفدوا إلى هنا ، أو عن طريق الإسبان الذين ذهبوا إلى المشرق ليدرسوا هناك . [فقد وفد على الأندلس **يونس أحمد الحرانى** ، قادما من المشرق ، فى إمارة **محمد** بن عبد الرحمن ، واستقر هنا ، وأن **عمر بن حفص بن برتق** درس فى **القيروان على ابن الجزار** ، فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، وأخذ عنه كتاب **زاد المسافر** فى علاج الأمراض ، وهو كتابه الرئيسى ، وهو الذى أدخله إلى الأندلس . ومن أطباء الأندلس الذين رحلوا إلى المشرق **محمد بن عبدون الجبلى** ، رحل إلى المشرق ، عام ٣٤٧هـ –٩٥٨م ، ودخل البصرة ومصر ، ودبر مارستانيهما ، وتمهر فى الطب ونبل فيه ، وأحكم كثيرا من فصوله ، وعانى صناعة المنطق عناية صحيحة ، ثم رجع إلى الأندلس عام ٣٦٠هـ – ٩٧١م ، فخدم الحكم المستنصر بالله ، وهشام المؤيد بالله ،

(١) ابن الابار ، التكملة ، الترجمة رقم ٤٠٣ .

وكان قبل أن يتطبب مؤدبا فى الحساب والهندسة ، وله فى التكسير كتاب حسن . وأخيرا ، من المؤكد أن التيار المشرقى تعمق وتأصل ، وقضى تماما على أى أثر لكل التقاليد الإسبانية القديمة التى سبقت الإسلام .

وكان معقولا أن يحدث هذا ، على الأقل فى العصور الأولى ، لأن أقصى ما يمكن أن يحققه طالب الطب فى إسبانيا الإسلامية أن يدرس كتب هذا العلم تحت إشراف طبيب متمكن ، وربما صحبه فى زياراته العادية للمرضى من زبائنه ، أو أن يحضر الفحوص التى يجريها فى منزله ، حيث تعود بعض الأطباء أن يستقبلوا المرضى الفقراء مجانا ، على حين أن مجال الملاحظة فى مدن الشرق أرحب اتساعا ، فمنذ أيام الإسلام الأولى كانت هناك مستشفيات كبرى ، ومن السهل على الطالب أن يجد الأستاذ الذى يدرس عليه ، فقد كان عدد الأطباء الذين يعملون فى المستشفى الواحد كبيرا ، ويبلغون العشرين أحيانا ، وإلى جانب أن المرضى كثيرون ، وأمراضهم متنوعة ، ومن ثم يتاح للطالب أن يرى عملا ، فى أى وقت ، ما كان قد درسه نظريا فى الكتب . وأما فى إسبانيا فكان ينقص الطلاب ، رغم ما هم عليه من ذكاء واهتمام ، الملاحظات والتجارب العملية ، أو قلتها[1] .

ومع ذلك لدينا ما يهدى إلى الطريقة التى يتم فيها تعليم الطب ، فى مخطوطة **لمحمد التميمى** الطليطلى تحتفظ بها مكتبة الإسكوريال ، وتحتوى على بعض المذكرات التطبيقية التى كتبها أحد الطلاب ، ويرى ميخائيل غزيرى أنها مذكرة لامتحان عملى ، وكان يعتقد دون شك أن الطب يومها كان يدرس فى المدارس العالية ، وهى تعرض لنا الخطة التى كانت متبعة فى الدراسة العملية للطب فى إسبانيا ، وطبقا لما نستخلصه من بعضها ، وتبلغ الخمسين لو كان الكتاب كاملا ، فإن الطريقة المعتادة تتم على النحو التالى :

يفحص الطبيب المريض عندما يعرض عليه ، ويسأله عن كل ما يعتقد أنه مفيد فى تحديد المرض ومعرفته ، ثم يدعو الطالب لكى يفحصه أيضا ، وخلال تبادل الأسئلة والملاحظات بين الأستاذ والطالب تتم عملية الإعداد ، وفى النهاية يكتب الطبيب العلاج . ويحدث كثيرا أن يسأل الأستاذ الطالب عما يعرفه عن المرض موضع الفحص والدراسة ،

---

(١) ليس لدى أخبار عن مستشفيات فى إسبانيا العربية ، فى حدود ما أعرف ، وقد أفدت من كتاب ليكلرك Leclerc عن « تاريخ الطب العربى » بخاصة ، فى تحرير هذه المادة ، وكل ما أورده خبر عن مستشفى وحيد كان قائما فى الجزيرة الخضراء فى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومدى معلوماته عنه ، ويفسر له ما غمض عليه فى الفحص قبل أن يلقى الدرس ، على نحو ما يحدث الآن فى المحاضرات ، فهى تعطى بعد مشاهدة المرضى ، وأى شىء يواجه الطالب فى التشخيص أو العلاج ، ويصعب عليه فهمه ، ولا يدرك كنهه ، يسأل الأستاذ تفسيرا له ، ولن يبخل عليه هذا بالجواب .

ومع أننا لا نعرف شيئا عن المناهج القديمة ، فإن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات المثيرة التى تضمنتها هذه المخطوطة ، وخاصة فيما يتصل بالدراسة العملية فى تلك الأيام .

ونقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية فى إسبانيا يفسر لنا ، ربما ، ظاهرة حرص بعض الأسر على أن تتوارث مهنة الطب ، وأن يتخصص أفرادها فيه ، لأن قلة فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه ، من التدريب الجيد ، والدراسة العلمية المتواصلة ، فهو يصحب والده دواما ، فهكذا نرى أسرة **المذحجى** فى قرطبة ، وقد جاء جدهم الوليد من المشرق ، وأصبح الطبيب الخاص **لعبد الرحمن الداخل** ، وأورث مهنته لخلفه من بعده ، حتى الجيل السابع فيما نعرف[1] . والشىء نفسه يقال عن أسرة **يونس** بن أحمد الحرانى ، وبنى زهر ، وابن الرومية ، وآخرين[2] .

وكان الأطباء وحدهم يدرسون علم النبات ، والأحياء ، والعلوم الطبيعية الأخرى ، إذ كان عليهم أن يقوموا فى الوقت نفسه بعمل الصيدلى ، وأن يعدوا الدواء من الأعشاب والعقاقير . ويذكر **ابن جلجل** ، أنه رأى اثنى عشر صبيا من الصقالبة ، مهمتهم تحضير الأدوية للطبيب أحمد بن يونس .

لا أظن المكان هنا مناسبا لكى نشير إلى المؤلفات العظيمة التى كتبها كبار الأطباء الإسبان ، مثل مؤلفات الطبيب والجراح العظيم **أبو القاسم** الزهراوى[3] ، وعرف عند الأوربيين فى العصور الوسطى وما تلاها باسم Abulcacis، [وأهمها كتابه **التصريف لمن عجز عن التأليف** ، وقد طار ذكره بين أهل الشرق والغرب ، ويعتبر بحق موسوعة طبية عظيمة ، وقد ترجمه إلى اللاتينية **جيراردو الكريمونى** ، وطبعت الترجمة اللاتينية على

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١٥٢٠ ، طبعة مدريد .

(٢) لا أظن الأمر يعود إلى ما رأى العالم الجليل فقط ، لأننا نلتقى بهذه الظاهرة بين أسر الفقهاء أيضا ، يورثون أبناءهم علمهم ، فهناك بنو يحيى بن يحيى الليثى ، وبنو بقى بن مخلد، وبنو سعيد بن منذر البلوطى ، وغيرهم (المترجم) .

(٣) نسبة إلى مدينة الزهراء ، وعن الزهراء انظر : فون شاك ، تاريخ الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٢ ، ترجمة د . الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .

مراحل ، ففى عام ١٤٧١م طبع منها جزء كثر استعماله ، بعنوان « كتاب الخادمين Liber servitoris » ، وموضوعه تحضير الأدوية المفردة ، وقد انتفع به الناس كثيرا ، وفى عام ١٥١٩م ، طبع منه جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل Liber theoricae et practicae أما الجزء الثلاثون فقد نشر باسم الجراحة Chirugia . وكان أهم وأذيع كتاب فى تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوى فى أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس ، وهو يحوى رسوم آلات الجراحة ، وأول مؤلف جعل من الجراحة علما قائما بذاته ، مستقلا عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح] ، وكذلك مؤلفات ابن رشد ، وابن باجة ، والمؤلفات القيمة التى كتبها علماء الطبيعة المشهورين ، أمثال ابن جلجل ، وابن البيطار ، وأبى العباس بن الرومية الإشبيلى ، ويكفى لتحقيق غايتنا أن نشير إلى أن كتاب التيسير لعبد الملك بن زهر ، [وقد أهداه إلى **ابن رشد** ، ويعتبر خير ما ألف المسلمون فى الطب العملى ، وتحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية ويأخذ بما تؤدى إليه الملاحظة المباشرة ، مفضلا ذلك على متابعة جالينوس وغيره من القدماء . وكان يأنف من الفصد والجراحات ، رغم أنه لجأ إليها أحيانا ونجح فيها ، ويرى أنه لا ينبغى للطبيب أن يقوم بتحضير الأدوية ، فسبق بهذا إلى مفهوم الطب الحديث من فصل الجراحة عن الطب الباطنى ، وعن الصيدلة] . وكان كتابه « التيسير » المرجع الرئيسى الذى تقوم عليه الدراسة فى مدارس الطب الإسبانية فى العهود الأخيرة من حياة الإسلام .

● **الفلسفة ، والفلك ، وغيرها :**

جمعنا بينهما فى الدرس ، ولو أن كل واحد منهما يختلف عن الآخر تماما ، ورغم أن الأول منهما لم يجد الرضى والقبول بعامة ، مثل بقية فروع المعرفة الأخرى التى عرضنا لها من قبل ، ولم نفصل بينهما لأنهما مضيا سويا ، وكان حظهما من التعاسة والنكسات واحدا .

لم تكن الفلسفة يوما موضع الرضا من عامة المسلمين ، وكانوا يرمون بالزندقة أولئك الذين يضعفون أمامها ، فيغرمون بها ، ويقبلون عليها ، وقد اعتنق عامة الإسبان الإسلام فى صدق ، وحرصوا على تنفيذ أحكامه فى دقة وتأثروا فى هذا الجانب بالتيارات التى كانت سائدة بين الفقهاء ، ولكن الطبقة العليا منهم ، وأسلموا رجاء أن يحتفظوا بإقطاعياتهم التى يملكونها فى هدوء ، لا أملا فى دخول الجنة ، ودون أن يفكروا فى الآخرة ، والذين يتعلمون حبا فى العلم نفسه ، لا رغبة فى مناصب يشغلونها ، أولئك وهؤلاء :

كيف يفضلون العلم التقليدى ، والعمل الآلى ، فيحشون ذواكرهم بما فى كتب الفقه الضخمة ، المليئة بالفتاوى والأحكام ، وأسماء الرواة ، على الدراسة التى تروى غلة طموح أسمى ما فى الروح ؟ . ومن ثم كان فى هذه الطبقات دائما تقاة وهواة ، يمارسون تقواهم علنا ، واحتفظوا بهواهم للفلسفة سرا ، حتى لا يفارقهم الناس مرعويين إذا شموا رائحة هوايتهم هذه ، ويدعون التعامل معهم خائفين ، وقد يصبح الفيلسوف ، إذا افتضح أمره ، موضع السخرية المبتذلة والحقيرة من العامة ، وقد تبلغ الشبهة بصاحبها أن تعطى خاتمة حياته شكلا مأسويا .

وهذا الخوف جعل من المستحيل أن تأخذ دراسة الفلسفة طابعا شعبيا ، وإذا قدر لها أن تأخذ طريقها إلى المدارس ، تم ذلك على نحو عابر وفى حذر شديد .

يروى أن شخصا من أسرة بنى زهر الشهيرة رأى ذات يوم كتابا فى المنطق بين يدى أحد طلابه الذين يترددون على بيته لدراسة الطب ، فأخذ الأستاذ الكتاب ، وألقى به فى جانب من القاعة ، وجرى وراء الطلاب فى عبوس غاضب ، وقرر أن يعاقبهم ، وتسلل الطلاب الغلابى واحدا وراء آخر ، وغابوا عن الدرس عدة أيام ، ثم استجمعوا شجاعتهم أخيرا ، وذهبوا إلى الأستاذ ، واعتذروا له بأفضل الطرق عن جرأتهم فى إحضار كتاب ممنوع . وتظاهر ابن زهر بتصديقهم ، وتابع إلقاء دروسه فى الطب ، وخصص لهم بعض الوقت لدراسة علوم القرآن والسنة ، وطلب منهم أن يعنوا بالمحافظة على شعائر الدين بخاصة ، وأن يتعمقوا فى الإحاطة بالمفاهيم الإسلامية ، واستجاب الطلاب لنصائح أستاذهم راضين ، فلما اقتنع بأنهم أصبحوا مهيئين تماما ، أحضر نسخة من كتاب المنطق الذى سبق أن منعهم من قراءته ، وقال لهم : « الآن وقد أصبحتم مستعدين لا أرى مانعا من شرحه لكم ، وبدأ يشرح لهم ذلك الكتاب »(1) .

يمثل موقف ابن زهر الرأى الذى كان يسير عليه أكثر الناس فطنة ، عادة ، فى عصره ، إما تظاهرا حتى لا يعرف عنهم هذا الإتجاه ، وإما صادقين دينا فى ترددهم ، لأنهم يدركون تجربة ما يمكن أن تحدثه دراسة الفلسفة فى نفوس الشبان من أذى ، إذا لم يكن فهمهم قد كمل نضجا ، ويرون أنها علم يلائم الروح تماما ، إذا تعمق الإنسان

---

(1) لم يذكر المؤلف المصدر الذى اعتمد عليه ، ونقل عنه هذه القصة ، ولم أستطع الاهتداء إليه بدورى وأنا أقوم بالترجمة ، فترجمته حرفيا عن الأصل الإسبانى .

دينا ، وقوى عقيدة ، وأصبح إيمانه أثبت من أن يهزه علم يعطى كل اهتمامه للعقل الإنسانى ، ويعتمد على الفهم ، ويدير ظهره للأمور التى تعتمد على الوحى فحسب .

لا تحتاج الفلسفة ، لحسن الحظ ، أن يهتم العامة بمصيرها ، وعلى الرغم من كراهية العامة لها كان فى إسبانيا دائما من يهواها ، منذ أيام **ابن مسرة** ، وعاش فى خلوة مع تلاميذه ومريديه ورفاقه ، فى القرون الأولى من تاريخ إسبانيا الإسلامية ، حتى دعاة **وحدة الوجود** من صوفية مرسية فى أيام الإسلام الأخيرة على بطحاء شبه الجزيرة ، وتوهجت فى سمائها ، خلال أفضل أيامها ، ثلاثة كواكب عظيمة : **ابن باجة** ، **وابن طفيل** ، **وابن رشد** .

ولأن الفلسفة لم تستطيع العيش علانية لم يتح لها أيضا تكوين تقاليد علمية فى تدريسها ، وكل ما هنالك أننا ندرك من الطريقة التى سار عليها ابن رشد فى الشرح العظيم الذى قام به لمؤلفات أرسطو ، وحرره طلابه أولا خلال الشرح الشفوى الذى كان يقوم به فى الدرس ، أنه كان يحتذى نهج المفسرين فى تفسير القرآن الكريم : يكتب نص الكتاب الفلسفى كما تلقاه ، ثم يقدم للمادة شرحا يضطلع به نفسه .

وكان الفلك ، كما رأينا ، يعانى من ضغط العامة أيضا ، وجاءت فترات من الوقت كان تدريسه ممنوعا ، إلا ما لابد منه لتحديد اتجاه القبلة فى المساجد ، وتعيين مواقيت الليل والنهار على مدار العام لتعرف أوقات الصلاة ، والاستيثاق من مواعيد الأهلة ، فإذا تجاوز الإنسان هذه المطالب من العلم فقد غرر بنفسه . « ونتيجة لهذا كان الناس يرمون بالزندقة كل من تجشم السير فى أوعار هذا الطريق ، ومع هذا فقد كان جمهور الناس يتجاوزون عن المنجمين والعرافين ، ومن يستخرجون الفأل ، والمتنبئين والسحرة ، وصناع الأحجبة والطلاسم ، وأما الفلك فقد كان محرما ، رغم أنه أقرب إلى العقل » .

ولم ينتشر هذا العلم على نحو واسع أيضا ، لصعوبة فهمه ، وارتفاع موضوعه ، ولأن ممارسته مهنة لا تدر مالا ، ولا يجنى صاحبها من ورائها مستقبلا ، وليس وراءها غير سوء ظن الناس بمن يشتغل به .

ولكن الأيام دول ، والزمن لا يمضى سيئا على الدوام ، وحتى فى الأيام السيئة أتاحت حرية التعليم وسطا مهيأ لأن يسخر من رقابة السلطة ، وأن يتجافى نظرات الشعب المعادية ، وعرفت هذه المواد علماء مشهورين يتمثلون فى مدرسة **مسلمة المجريطى** [وهو

من أقدم علماء المسلمين ذوى الأهمية فى إسبانيا ، ومن بين مأثور كتبه **رسالة الاسطرلاب** ، و« **ثمار العدد** » ، ونشر وصحح جداول النجوم ، أو الزيجات ، التى وضعها الخوارزمى ، وهى أول جداول ألفها مسلم ، وعدل أساسها من عصر يزد جرد الفارسى إلى عصر الإسلام ، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وله ترجمة لكتاب **قبة الفلك لبطليموس** ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل بسويسرة عام ١٥٣٦م] ، ونبغ فى مجال الفلك أيضا ابن برغوث ، محمد بن عمر ، وتخرجت على يديه طائفة زاهرة من الرياضيين ، [وظهر **الزرقالى** ، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى ، وهو أعظم أهل الفلك من العرب ، ومن كبار علمائه فى العصور القديمة ، وقد وضع جداول فلكية ، وركب اسطرلابا ، واخترع أجهزة دقيقة « كالزرقالية » ، و« الصفيحة » ، وهذه الكلمة دخلت إلى اللغات الأوربية فى صورة asafea وابتكر فى الفلك نظريات جديدة هامة عن الكواكب السيارة ، والحركات الدائرية للنجوم] ، وابن حى ، وغير هؤلاء كثيرون ، وبعضهم أصابه سوء الحظ فى إسبانيا ، فوجد العزاء والتقدير عند أمراء ممتازين فى أقصى المشرق ، أفاضوا عليه الإجلال والتكريم(١) .

أما بقية العلوم الرياضية الأخرى ، مثل الحساب ، والجبر ، والهندسة وغيرها ، فكان تدريسها لذاتها أحيانا ، أو لتطبيقها فيما تتطلبه الحياة الاجتماعية واليومية من حساب ، فى التجارة ، وتقسيم الأراضى ، والخراج والضرائب وما إلى ذلك .

وكان تدريس هذه المواد يتم فى رسائل ألفها علماء إسبان ، وشاع استخدامها فى المدارس ، [وأول من اشتهر فى الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم ، أبو عبيدة مسلم بن أحمد ، المعروف بصاحب القبلـة ، لأنه كان يشرق فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة ومصر .

« ومنهم يحيى بن يحيى المعروف **بابن السمينة** ، من أهل قرطبة ، وكان بصيرا بالحساب والنجوم ، والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر ، والفقه والحديث ، والأخبار والجدل ، ودخل المشرق ، وقيل إنه كان معتزلى المذهب »] (٢) .

---

(١) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ٧٧ .

(٢) الزيادة من نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٣٧٥ ، طبعة إحسان عباس .

ومنهم **ابن السمح** ، أبو القاسم أصبغ الغرناطى [« وكان متحققا بعلم العدد والهندسة ، متقدما فى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم . وكانت له مع ذلك عناية بالطب ، وله تواليف حسنة منها : « المدخل إلى الهندسة » ، فى تفسير كتاب إقليدس ، ومنها كتاب « ثمار العدد » المعروف « بالمعاملات » ، ومنها كتاب « طبيعة العدد » تقصى فيه أجزاء من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى ، ومنها كتاباه فى الآلة المسماة بالاسطرلاب ، أحدهما فى التعريف بصورة صنعتها ، وهو مرتب على مقالتين ، والآخر فى العمل بها ، والتعريف بجوامع ثمارها ، وهو مقسم على مائة وثلاثين بابا . ومنها زيجه الذى ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف « بالسند هند » ، وهو كتاب كبير مقسم على جزئين أحدهما فى الجداول ، والأخرى فى رسائل الجداول] (١) .

[وأبو القاسم بن الصفار ، وكان عالما بالهندسة والعدد والنجوم وله زيج مختصر على مذاهب « السند هند » ، وله كتاب فى عمل الاسطرلاب ، موجز العبارة ، قريب المأخذ .

« ومنهم أبو الحسن **الزهراوى** ، وكان عالما بالعدد والطب والهندسة ، وله كتاب شريف فى المعاملات على طريق البرهان » .

« ومنهم أبو الحكم عمر **الكرمانى** ، من أهل قرطبة من الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحران ، وهو أول من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس » .

« ومنهم **أبو مسلم ابن خلدون** ، من أشراف إشبيلية ، وكان متصرفا فى علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ، وتلميذه **ابن برغوث** ، وكان عالما بالعلوم الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار **الرعينى** ، وكان بصيرا بالهندسة والنجوم ، **وعبد الله بن أحمد السرقسطى** ، كان نافذا فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، **ومحمد بن الليث** ، كان بارعا فى العدد والهندسة وحركات الكواكب ، **وابن حى** ، قرطبى بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، عارف بالهندسة والمنطق والزيوج »] (٢) ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم .

---

(١) الزيادة من كتاب صاعد الطليطلى ، طبقات الأمم ، ص ١٠٧ وما بعدها ، طبعة السعادة ، القاهرة .

(٢) الزيادة التى بين الخاصرتين من نفح الطيب ، جـ ٣ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ، وهى إيجاز طيب لحركة دراسة الرياضيات ، والمؤلف اكتفى ببعض الأسماء . (المترجم)

• الموسيقا :

يقول **ابن خلدون** : لم تجد الموسيقا فى إسبانيا تقديرا كبيرا ، وكان الفنانون محتقرون ظنا بأنهم يمارسون مهنة واطية وعامية[1] . وهو رأى مبالغ فيه ، وربما أدى إلى هذا الخطأ أن ابن خلدون زار إسبانيا الإسلامية فى فترة انحطاطها ، أو أنه تأثر بفكرة كانت شائعة فى بعض الأوساط الاجتماعية . نعم ، كان المغنون والموسيقيون من الجوارى ، أو عامة الشعب ، أو الأجانب ، ولم تكن نظرة الطبقة العليا إليهم تنطوى على التقدير أو الاحترام ، وكان اعتراض الفقهاء شديدا على ما فى أغانيهم من الميوعة والخلاعة والمجون ، وعد الأتقياء الطيبون هذا الفن الجميل شيئا غير كريم . ولكن ذلك كله لا يعنى أن الشعب الإسبانى فى جملته لم يكن يقدر الفنانين الذين يستحقون الإجلال والتقدير ، أو أنه تخلى عن حب الموسيقا الجميلة ، حتى لو كانت خطيئة مغتفرة . ولدينا الدليل واضحا جليا فيما حدث لأعظم فنان عرفته تلك العصور ، أصالة فى فنه ، وعمقا فى معارفه ، وصنع مجيئه إلى إسبانيا عصرا ، وحدد تاريخا ، ويمكن أن يعتبر بحق مؤسس المدرسة الوطنية الإسبانية فى الموسيقا والغناء ، تدريسا وممارسة ، وذلك الفنان هو : **زرياب** .

ما كاد زرياب يخاطب الحكم الأول حتى سر هذا « بكتابه ، وأظهر له من الرغبة فيه ، والتطلع إليه ، وإجمال الموعد ما تمناه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع إلى العدوة ، فكان معه **منصور اليهودى** المغنى رسول الحكم إليه ، فثناه عن ذلك ، ورغّبه فى قصد القائم مقام الحكم ، وهو **عبد الرحمن** الأوسط ولده ، وكتب إليه بخبر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه ، والسرور بقدومه عليه ، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة .

---

(١) نص ابن خلدون لا يعطى هذا المعنى تماما ، فهو يقول ، بصدد زرياب : « فأورث الأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن صبابة على تراجع عمرانها ، وتناقص دولها ، وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع ، لأنها كالية فى غير وظيفة من الوظائف ، إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهو أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه » ، المقدمة ، ص ٤٢٨ ، طبعة المكتبة التجارية .

« فدخل هو وأهله البلد ليلا صيانة للحرم ، وأنزله فى دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وخلع عليه ، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه – وكانوا أربعة : عبد الرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى – عشرون دينارا لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدى ، ثلثاها شعير وثلثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار .

« فلما قضى له سؤله ، وأنجز موعوده ، وعلم أن قد أرضاه ، وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهو له ، واطرح كل غناء سواه ، وأحبه حبًا شديدًا ، وقدمه على جميع المغنين ، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام ، وأدنى منزلته ، وبسط أمله ، وذاكره فى أحوال الملوك ، وسير الخلفاء ، ونوادر العلماء ، فحرك منه بحرا زخر عليه مده ، فأعجب الأمير به ، وراقه ما أورده ، وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكا بما ذكرناه آنفا ، ولما ملك قلبه ، واستولى عليه حبه ، فتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراد »[1] .

لو أن مظاهر التقدير هذه كانت الوحيدة التى تلقاها ، لوصفنا العمل بأنه إسراف مقيت ، من أمير متقلب الأهواء . لا يمتد إلى بقية الشعب ، لكن الواقع أن الموسيقى الموهوب ، ذا الحديث العذب ، والسلوك الأنيق ، كان موضع الترحيب من الجميع ، حتى أصبح القدوة لأنماط ما يرتدون من أزياء فى تلك الأيام ، واتخذ الناس منه مثلا فى شكل ملابسه ، ونوع قماشه ، وتسريحة شعره ، وأثاث بيته ، وغير ذلك كثير ، وبعض المبتدعات الجديدة التى أدخلها أصبحت تقاليد قومية ، واستمرت قائمة حتى آخر أيام الإسلام الإسبانى وما بعدها .

وفيما يتصل بفنه حدث ولا حرج ! ، فقد تجلت أصالته فى كل شىء ، فزاد « فى أوتار عوده وترا خامسا اختراعا منه ، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسطا ، فاكتسب به عوده

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٣ ص ١٢٤ – ١٢٥ ، طبعة إحسان عباس .

ألطف معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن الزير صبغ أصفر اللون ، وجعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد ، وهو فى الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمى مثنى ، وصبغ الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمى البم ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذى عطل من الصبغ وترك أبيض اللون ، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ ، ولذلك سمى المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضى طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه ، إلا أنه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموى هذا الوتر الخامس الأحمر الذى اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى ، فكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيد مقام النفس فى الجسد »[1] .

« وأوتارى (الأول والثانى منها) من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل الأسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف مالغيرها من مصران سائر الحيوان ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »[2] .

« وهو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر ، معتاضا به من مرهف الخشب ، فأبرع فى ذلك للطف قشر الريشة ونقائه ، وخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه »[3] .

ولدينا تفصيلات لا بأس بها عن منهجه فى التدريس ، « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج من الفم ، فإن كان ألص[4] الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
(٤) تقارب أضراسه حتى لا يرى بينها خللا . « المترجم »

قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع ، يبيتها فى فمة ليالى حتى ينفرج فكاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته : يا حجام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا ، لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف أنه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وإن وجد خلاف ذلك أبعده »[١] .

ولكن الابتداع الأهم ، والجوهرى ، والذى جعل من زرياب أستاذا عظيما ، ماهرا ومثقفا ، منهجه الممتاز فى تعليم الغناء ، فقد كان الأساتذة الفنانون قبله يغنون منذ البدء كما لو كانوا فى حفلة موسيقية ، ويحاول التلاميذ أن يقلدوهم ، وبقوة التكرار فحسب يصل أولئك وهؤلاء إلى النتائج التى يبتغونها . أما زرياب فقد قسم العمل إلى ثلاث مراحل : الأولى تعليم الإيقاع ، فيبدأ بالنشيد « بأى نقر كان » ، والمرحلة الثانية تعليم الإيقاع فى بساطته ، دون أن يضيف إليه أى طبقة ، والمرحلة الثالثة : أن « يختم بالمحركات والأهزاج »[٢] . ومعها تعود أن يضفى على الغناء تعبيرا وحركة ولطفا ، وبها تتضح مهارة الفنان .

استطاع زرياب بهذا المنهج ، وبفرقة تتكون من أجمل المغنين صوتا ، بين مجموعة كانت تبلغ عشرة آلاف فيما يقال ، أن يبلغ شهرة شعبية **واسعة النطاق** ، **وأرسل إلى زوايا النسيان كلا من علون وزرقون** ، **وهما** أول من دخل الأندلس فى أيام الحكم الأول من المغنين المشارقة ، فنفقا عليه وصارا من أبرز الموسيقيين[٣] ، وأخمل بشهرته مغنيات المدينة **الثلاث : فضل وعلم وقلم** . [وكانت فضل « حاذقة بالغناء ، كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد ، ونشأت وتعلمت فى بغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة ، ثم اشتراها الأمير عبد الرحمن الأوسط صاحب الأندلس ، مع صاحبتها علم المدنية ، وصواحب غيرها ، واليهن تنسب دار المدنيات بالقصر ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) هكذا فهمت الفقرة الواردة فى نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٨٨ ، طبعة أوربا « جـ٣ ص ١٢٨ ، طبعة إحسان عباس » وهذه الفقرة لم ترد فى ترجمة جانجوس لنفح الطيب إلى اللغة الانجليزية ، لأنها لم تكن فى المخطوطة التى اعتمد عليها .

(٣) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٨٩ ، طبعة أوربا ، جـ ٣ ص ١٣٠ إحسان عباس .

وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ، ونصاعة ظرفهن ، ورقة أدبهن . **وتضاف إليهن جارية يقال لها قلم** ، وهى ثالثة فضل وعلم فى الحظوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبى الباسك ، وحملت صبية إلى المشرق ، فوقعت بمدينة النبى ﷺ ، وتعلمت هناك الغناء فحذقته ، وكانت أديبة ذاكرة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب] (١) .

وانتشرت آلات الموسيقا على نحو واسع ، فكانوا يستخدمون منها : القانون ، والرباب ، والعود ، والمعزف ، وآلات أخرى من ذوات الأوتار ، والناى ، والمزمار ، والصفارة ، والبوق ، وآلات أخرى من ذوات الصفير ، والدف والطنبور ، وغيرها من أدوات القرع . وكثير من هذه الآلات كان يصنع فى إسبانيا ويصدر إلى شمال أفريقيا .

وكان لنظرية الموسيقا أساتذتها أيضا ، وإذا تحدثنا عن المؤلفين كان ابن فرناس أول من درس كتبا فى هذه المادة(٢) . وظلوا يدرسون كتب **الفارابى** إلى أن ألف **ابن باجة** أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ السرقسطى ، رسالته فى الموسيقا .

[ولد **ابن باجة** فى سرقسطة قريبا من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتغل طبيبا فى بلدته ، ولكنه نزح إلى إشبيلية وشاطبة بعد سقوط مدينته فى يد النصارى عام ١١١٨م ، ثم ذهب إلى فاس بالمغرب ، وصار وزيرا فى البلاط المرابطى ، فكاد له أحد أعدائه ، ودس له السم .

« وكان **ابن باجة** كثير التأليف ، وصلنا مالا يقل عن أربعة وعشرين كتابا من كتبه فى الطب ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية ، وكان إلى جانب مواهبه التى لا نظير لها فى هذه العلوم « متقنا لصناعة الموسيقى ، جيد اللعب بالعود » ، ويصفه **ابن خلدون** بأنه « صاحب التلاحين المعروفة ، « وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد ويشهد له خصمه **الفتح** بن خاقان بأنه « أقام سوق الموسيقى »(٣) .

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٩٦ ، طبعة أوربا ، جـ ٣ ص ١٤٠ طبعة احسان عباس .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٢٥٥ ، طبعة إحسان جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(٣) الزيادة من نفح الطيب ، فى أمكنة مختلفة من الجزء الثالث طبعة إحسان عباس . وانظر أيضا : تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ، ترجمة د . حسين نصار ، ص ٢٦٢ ، المترجم .

واشتهر **ابن باجة** على نحو واسع كملحن ومبدع ، ويقول **ابن سعيد المغربى** : « هو فى المغرب بمنزله أبى نصر الفارابى بالمشرق » . ولسوء الحظ لم يصلنا شىء من كتابات هذا المؤلف والمفكر العظيم عن الموسيقا] .

ومن بين المدن الإسبانية التى احتفظت بتقاليد مدرسة زرياب أفضل من غيرها ، **تجىء إشبيلية فى المقام الأول دون أدنى نقاش** ، وعنها صدرت الموسيقا التى تغنى وتدرس فى تونس والمغرب ، وحتى يومنا هذا فإن إشبيلية لم تتراجع عن مكانتها ملكة للغناء الأندلسى ، رغم التغييرات التى أصابتها بفعل الزمن[1] .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، الترجمة الفرنسية ، جـ ٢ ص ٤٢٢ ، وطبعة التجارية ، النص العربى ، ص ٤٢٨ . وانظر : فرانسيسكو سلفادور ، الموسيقا العربية وصلاتها بالموسيقا الإغريقية ، والغناء الجريجورى ، ص ٥ و ٦ .

obeikandi.com